إدارة السعادة

د. صلاح بن محمد آل الشيخ

ح صلاح محمد عبدالرحمن آل الشيخ، ١٤٣٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
آل الشيخ، صلاح محمد عبدالرحمن
إدارة السعادة. /صلاح محمد عبدالرحمن آل الشيخ – الرياض، ١٤٣٣ هـ
ص؛ سم
ردمك: ٨-١١٨٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- السعادة ٢- الوعظ والإرشاد
ديوي ١٣١.٣ ٩٤٠٦/ ١٤٣٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

Copyright © 2012 Salah Mohamaad Al Asheikh. All rights reserved.
Published by Salah Mohamaad Al Asheikh
ISBN 978-603-01-1184-8

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد رسول رب العالمين، ورحمتُه للجِنَّةِ والناس أجمعين، وبشيرُه بسعادة تامة في جنة ونعيم، ونذيرُه من بؤس وعذاب أليم، وعلى آله المطهرين، وصحبه المرضيين.

السعادة هذا الشعور بالطمأنينة والرضا والفرح، مطلبٌ لكل إنسان، فكلٌ يبحث عنها، وكلٌ يسعى لها، وكلٌ يرجو الوصول إليها. وكلٌ له مسلكٌ لتحقيق سعادته يتوافق مع معتقده، وطباعه، وحظوظه، وتجاربه. فوسيلة المؤمن لسعادة الدنيا ليست كوسيلة الملحد، وما يُسعِدُ هذا لا يسعد الآخر. وكذلك البخيل والكريم، والجبان والشجاع، والمنعزل والاجتماعي، فكلٌ له سبيله ووسيلته المناسبة لمعتقده وطبعه لتحقيق سعادته.

وقد أصبح الناسُ اليوم أكثرَ شغفاً لتحقيق سعادة الدنيا، وأشدَ سعياً لتحصيل مُتَعها، لتنوع وسائل الترويح والترفيه والترف وكثرتها، والإبداع في توفيرها وعرضها، وكثرة الدعاية والتسويق لها، في المآكل والملابس، وفي المراكب والمنازل، وفي السفر والتسلية، وغيرها من الشهوات واللذات والمتاع.

وواجه الكثيرُ من الناس، بسبب ظروفهم المالية، صعوبةً وشدةً لنيل وسائل الترف والترفيه التي يرجون بها السعادة، فأشْقَوا أنفسَهم وأتعبوا أبدانهم، وأرهقوا أذهانهم، وتمنوا بحسرةٍ مثل ما لفلان من المال. وربما فلان هذا لم يحصل بالترف والنعيم طمأنينةً وسعادةً، بل أورثته هماً وغماً.

وهذا كتابٌ، حرصت على اختصاره، وسميته باسم فصل من فصوله، موضوعه فهمُ السعادة، لأنَّ فهم الشيء هو السبيل الأمثل لحسن معالجته، وبلوغ المراد منه. ورتبتُ فصول الكتاب لفهم السعادة، وسُبل الوصول إليها، وحُسن إدارتها، وعلاقة سعادة الدنيا بسعادة الآخرة، وفهم العلاقة بين السعادة وأهم المؤثرات الفكرية والنفسية والاجتماعية. كالعلاقة بين الدين والسعادة، وهل الدين ضروري لتحقيقها في الدنيا، والعلاقة بين العقل والسعادة، فهل الذكي أقرب للسعادة أم هو أبعد، ومدى تأثير الناس على الفرد، وكيف يَسْعد بهم، وكثيرٌ غيرها من المسائل.

وفي فصل الطبع والسعادة أكشف عن إعجاز علمي للقرآن الكريم، أظن ولا أجزم أنه جديد. وقعت عليه، بفضل الله تعالى، عرَضاً وأنا أبحث عن وراثة الإنسان لطباع آبائه، وتكوُّنِ النطفة وهي الخلية الأولى للإنسان.

ذُكِر أن الحافظ ابن حجر لمَّا كان رئيساً للقضاة مرَّ يوماً بالسوق في موكبٍ عظيم، وهيئةٍ جميلة، فهجم عليه يهوديٌ يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت، وهو في غاية الرثاثة والشناعة. فقبض على لجام بغلته وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأي سجن أنت فيه! وأي جنة أنا فيها! فقال له: الحمد لله، إذا صرتَ غداً إلى عذاب الله كانت هذه جنتك، وإذا صرتُ أنا إلى نعيم الله ورضوانه كان هذا سجني، فأسلم اليهودي.

ومما دفعني لكتابة هذه الرسالة، عكْسُ هذه القصة، وهو ما نعيشه اليوم، ونسمعه ونراه، من حال كثير من المسلمين، ما يكابدونه من فقر وجوع، وما يقاسونه من ظلم وبغي، وما يعيشونه من سفهٍ وجهل. وما يقابل هذه الحال من معيشة الرفاهية والغنى، والعدل والنظام، والمعارف والعلوم الدنيوية لكثير من الكفار في بلاد الغرب خصوصاً.

وهذه فتنةٌ حذر الله منها، خوفاً على الناس عموماً، والمسلم خصوصاً من الحيرة والشك في خيريته وفضله، بل وفي دينه وأخلاقه. فتنةٌ ربما دفعته لتقليدهم في رؤيته وفكره، وفي سلوكه وأخلاقه، وفي هيئته وحديثه، وهماً منه وظناً أنَّه السبيل لبلوغ سعادته وراحته.

وفي الكتاب قطعي دليله الكتاب والسنة، ورأيٌ رأيته يقبله بعضٌ ويرده بعض، وكلُّ حَسَنٍ فيه فمن الله وحده، وكل زلل فمن ذنبي، قال تعالى: (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) [النساء:٧٩].

أرجو أن يجد القارئ الكريم في الكتاب جديداً مفيداً ممتعاً. وأسأل الله أن يغفر لي ولوالدي وأهلي والمسلمين، وصلى الله وسلم على محمد السعيد، وآله وصحبه أجمعين.

سُبُلُ السَّعَادة

السعادة، هذا الشعور الذي يلابس النفس فتمتلئ به بهجةً وفرحاً، وسكينةً واطمئناناً، عند استيقاظها في صباحها، واستقبالها ليومها، وقبل نومها وسكونها في ليلها. شعورٌ يؤنسها في وحدتها وعزلتها، وشعور يعمِّقُ مُتعتَها مع الأهل والناس، وإحساس يلازمها في حضرها وسفرها، وفي راحتها وكدها. فكلُ حسنٍ تسمعه يبهجها، وكل جميل تراه يعجبها.

فالسعادة ليست ضحكَ ساعة، وليست لذةَ ليلة، ثم تعود النفس بعدها إلى ضيقها وحرجها، وبؤسها وضجرها. ولكن السعادة شعور غالب على النفس، ممتد مع الوقت، لا يقطعه إلا الطوارئُ المكدرة التي تصيب، ثم لا تلبث النفس أن تعود لأنسها واطمئنانها، وفرحها وسعادتها.

هذه السعادة التي يسعى كلٌ لها، ويطلب الوصول إليها، فكل البشر، مع اختلاف أديانهم وعقولهم، وبلادهم وأعرافهم، وأجناسهم وأعمارهم، كلُّهم يبحث عنها، فكلٌ يريدها، وكلٌ يحلم بها، ويعيش لتحقيقها.

هذه السعادة، يتفق كثيرٌ من الناس في تعريفها، ويختلفون كثيراً في الأسباب التي تؤدي لتحقيقها، والطُرق التي تُسلك للوصول إليها.

وهذا الاختلاف بينهم في الأسباب الموصلة للسعادة مردُّه إلى اختلاف دياناتهم وأعرافهم، وأيضا إلى تنوع تجاربهم في الحياة وتباين أعمارهم، واختلاف جنسهم وأجناسهم، واختلاف تربيتهم وعاداتهم، واختلاف أخلاقهم وجبلاتهم.

هذه السعادة، كثير من الناس يرونها في المال والغنى، يشترون به ما يشتهون، ويبذلونه في ما يحبون، ويحصلون به ما يريدون، ويعيشون به حياة رفاهيةٍ ورغدٍ وترف. قال الله تعالى: (المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيرٌ أَمَلاً) [الكهف:٤٦]**. وقال صلى الله عليه وسلم: (نعْمَ المالُ الصالح للرجل الصالح)** [صحيح[١]]**، وقال: (اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السفلى)** [متفق عليه]**، واستعاذ من الفقر.**

كان أُحيحة بن الجلاح ينزل بالمدينة، فافتقر فجفته زوجتُه، وجفاه إخوانه وأحبَّاؤُه. ثم إنه أثرى، فكان له نخل يأتيها بنفسه ويسقيها ويتعهدها، فقال في ذلك:

[١] الراوي: عبدالله بن عمرو بن العاص، المحدث: الألباني، المصدر: غاية المرام، الصفحة/الرقم: ٤٥٤، خلاصة حكم المحدث: صحيح. (تخريج جميع الأحاديث بواسطة موقع الدرر السنية – الموسوعة الحديثية).

استغن أو مت ولا يغررك ذو حسب
من ابن عمٍ و لا عمٍ و لا خال
إني أكبُّ على الزوراء أعمرها
إنَّ الكريمَ على الإخوان ذو المال

وقال عُروة بن الوَرد:

ذَرِيني للغِنَى أسعى فإنِّي رأيتُ النَّاسَ شَرّهُم الفقيرُ
وأحقَرُهم وأهونُهم عليهم وإنْ أمسى له حَسب وخِير
يُباعده القريبُ وتَزْدرِيه حَلِيلتُه ويَنْهره الصَّغير
وتُلْفِي ذا الغنى وله جَلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يَطير
قلِيلٌ ذَنْبُه وَالذنْبُ جمٌ ولكنْ لِلْغَني رَبٌّ غَفور

كان سعدُ بن عُبادة – رضي الله عنه - يقول: اللهم ارزقني جِدّاً ومَجدا فإنه لا مَجد إلا بفعَال ولا فِعَالَ إلا بمال. وفي كتاب الأدب للجاحظ: "اعلم أنّ تَثْمير المال آلةٌ للمكارم وعَوْنٌ على الدِّين وتأليف للإخوان. وأنَّ مَن فَقد المالَ قَلَت الرَّغبةُ إليه، والرَّهبة منه، ومَن لم يكن بمَوْضع رَغْبة ولا رَهْبة، استهان الناسُ به. فاجْهَد جَهْدك كلَّه في أَنْ تكُون القلوبُ مُعَلَّقةً منك، برَغْبة أو رَهْبة، في

دِين أو دُنيا". وقال حكيم لابنه: يا بُنيّ عليك بطَلَب المال، فلو لم يكن فيه إلاّ أنَّهُ عِزٌّ في قَلْبك وذُلٌ في قلب عدوّك لكفى.

والسعادة عند بعضٍ لا تكون إلا في حال الصحة والقوة والشباب، فبها يتمتعون ويتنعمون، قوةٌ تمكنهم من العمل والكسب، وقوة تمتعهم بالأكل والشرب والنكاح، وقوة تعينهم على الترحال والسفر. عاش أحدُ الشعراءِ معدماً مُفلِساً، وهو في عنفوان شبابِهِ، يريدُ درهماً فلا يجدُهُ، يريدُ زوجةً فلا يحصُلُ عليها، فلمَّا كبرتْ سِنُّه، وشاب رأسُه، ورقَّ عَظْمُهُ، جاءهُ المالُ منْ كلِّ مكان، وسهُلَ أمرُ زواجهِ وسكنِه، فتأوَّه وتحسر لتحقق ما أمل بعد زوال قوته وشبابه، فأنشد:

ما كنتُ أرجوهُ إذ كنتُ ابنُ عشرينا
مُلِّكْتُهُ بعد ما جاوزتُ سبعينا
تطُوفُ بي منْ بناتِ التُّركِ أغْزِلةٌ مِثلُ الظِّباءِ على كُثبانِ يبرينا
قالوا أنينُك طول الليلِ يُسْهِرُنا فما الذي تشتكي قلتُ الثمانينا

وقال آخر:

المرء يرغب في الحياة وطول عيشٍ قد يضره
تفنى بشاشتُهُ و يبقى بعد حلو العيش مرهُ
و تسوؤه الأيامُ حتى لا يرى شيئاً يسرهُ

وقوم يرون السعادة في الأهل والولد، في قربهم والأنس بهم، وفي حبهم وودهم، وفي سعادتهم وصلاحهم، وفي صحتهم ونجاحهم. قال الله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الكهف:٤٦]، وقال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [آل عمران:١٤]. فقلوبهُم أبداً معلقة بأولادهم، إذا فرحوا فرحوا لفرحهم، وإذا مرضوا مرضوا لمرضهم، سعيهم في الدنيا لأجلهم، ومالهم مسخرٌ لمصالحهم. وقد رأينا مَن يغترب عن وطنه وأهله، ويكد ليله ونهاره، ليجمع مالاً لزواج ابنته، ورأينا أُخرى تكنس وتطبخ، تجمعه لدراسة ابنها.

وفريقٌ يرون السعادة في الأليف والحبيب، في شوقهم لهم عند غيبتهم، وشوقهم لهم وهم معهم، في وصلهم وهمسهم، وفي مسامرتهم وضحكهم. قال ابن خلدون في ولاَّدة:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيشُ طلقٌ من تآلفنا ... ومنبعُ اللهوِ صافٍ من تصافينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وقال عمرو بن ربيعة:

أبت المليحةُ أنْ تواصلني وأظن أني زائرٌ رمسي
لا خيرَ في الدنيا و زينتِها ما لم توافق نفسها نفسي
لا صبرَ لي عنها إذا حسرت كالبدرِ أو قرنٍ من الشمس

وهناك من يرى السعادة في الصداقة، ومع الأصدقاء، في مجالستهم ومحادثتهم، وفي وفائهم ونصحهم، وفي الإفضاء إليهم ومكاشفتهم، وقد قيل: مجالسة الإخوان مسلاةٌ للأحزان. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "إن في المحادثة تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهم، وتنقيحاً للأدب". وقال هشام بن عبد الملك: "أكلت الحلو والحامض، حتى ما أجد لواحد منهما طعماً، وشممت الطيب حتى ما أجد له رائحةً، وأتيت النساء حتى لا أبالي امرأةً أتيت أم حائطاً، فما وجدت شيئاً ألذَّ من جليس تسقط بيني وبينه مؤونة التحفظ". وقد قيل شعرا:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيبة يلعبُ
ولم يُلهني دارٌ ولا رسم منزلٍ ولم يتطربني بنانُ مخضبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى خيرِ بني حواء والخيرُ يطلبُ

وقوم يرونها في الوحدة والعزلة، في البيت مع الكتاب، وفي الشاطئ مع البحر، وفي البر مع النجوم والسماء. وقد قيل: إذا أردت الحياة بسلام فابتعد عن الشهرة. وقال الشاعر:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي فـدام لي الهنا ونمـا السرور
وقاطعت الأنـام فلا أبـالي أسار الجيش أم ركب الأمير

وقوم يرون السعادة في العمل والإنجاز، وفي تحقيق الطموحات وتحصيل الشهادات، وبلوغ المناصب والمراتب، وفي المكانة والجاه، وفي القيادة والريادة. وقد رأينا من وسع الله عليه، وهو متمسكٌ بمنصبه، يبذل صحته ووقته لأجله، قد تجاوز الستين ويطلب التمديد، ويرى في فقد منصبه فقد حياته.

وكثير من الناس، يرون السعادة في اللهو واللعب، والاستمتاعِ بالشهوات، وتحصيل اللذات. والمؤمنون منهم يقيدون ذلك بما لا يفوت عليهم سعادة الآخرة، وأما الذين لا يؤمنون فشعارهم الذي يرددون، لا تجعل شيئا يحول بينك وبين التمتع بدنياك، لا تجعل الدين ولا الأخلاق، ولا العادات ولا الحياء، تحول بينك وبين ما تشتهيه، وعمرك قصير، فحصل فيه ما تستطيع، من لذة وشهوة.

قال امرؤ القيس:

تمتع من الدنيا فإنك فانٍ من النشوات[1] والنشأِ[2] الحسان
من البيض كالآرام والأدم كالدمى حواصنها والمبرقات الرواني

وقال آخر:

تمتَّعْ من الدُّنْيا فإنَّكَ فانِ وإنَّكَ في أيدي الحوادثِ عانِ
ولا تنظرنَّ اليومَ لهواً إلى غدٍ ومن لِغَدٍ مِنْ حادِثٍ بأَمانِ

وقوم يرون السعادة، كل السعادة، في العلم والمعرفة، وفي البحث والدراسة، وفي اكتساب المعرفة وحل المسألة، وفي حلق العلم ومجالسة العلماء، وفي المدارسة والمحاورة، وفي الحفظ والمطالعة، وفي التعليم والتدريس، ومع الكتب في المكتبة. قال الزمخشري:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي من وصل غانيةٍ وطيبِ عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصةٍ أشهى وأحلى من مدامةِ ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها أحلى من الدوكاء والعشاق

وصفوةٌ من الناس، وهم الخيارُ الأبرار، الفطناء الأكياس، أُنسُهُم مع كلام ربهم وحديث رسولهم، وسعادتهم في عبادتهم وتبتلهم، في

---

[1] جمع نشوة، والنشوة أول السكر، وقيل السكر نفسه.
[2] الفتاة الناشئة الشابة، قال ابن السكيت: النشأ الجواري الصغار. وروي والنساء

صلاتهم وصيامهم، وفي زكاتهم وصدقاتهم، وفي سهرهم ومناجاتهم، وفي دعاءهم وبكاءهم، وفي جهادهم وصبرهم. قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقيَّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيدُ
وما لا بد أن يأتي قريب ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

وقال آخر:

ليس السعيد الذي دنياه تسعده إنَّ السعيدَ الذي ينجو من النار

وقال الشافعي رحمه الله:

إن لله عباداً فُطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: "إنه ليمرُّ بالقلب أحوالٌ أقول عندها إنْ كان أهل الجنة في مثل هذه الحال فهم في عيشٍ طيب". وقال ابنُ القيم: "قال بعض العلماء: فكرت فيما يسعى فيه العقلاء فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد وان اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعَهُم إنَّما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكتب، وهذا

بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعلَّ أكثرها إنما يوصل إلى ضده. ولم أرَ في جميع هذه الطرق طريقاً موصلةً إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء، فإنَّ سالك هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ الغالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كلُّ شيء، وإن فاته فاته كلُّ شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته".

ونفوسُ الناس متفاوتة في ما يكفيها لتحقيق سعادتها، وأنسها ورضاها، فبعض النفوس يكفيها قليلٌ من سبب واحد، يكفيها الدين لتحقيق سعادتها، أو يكفيها الولد وقليل المال. ونفوس لا تسعد ولا تطمئن إلا إذا حصلت النهاية من كل سبب من أسباب السعادة، فلا سعادة لها إلا بوفرة المال، وتمام القوة، وصفاء الصحبة، وكمال الشهوة، وسعة العلم، وغيرها. و كانت للمتنبي نفسٌ وصفها فقال:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه مركوبه رجلاه و الثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبيَّ مالهُ مدىً ينتهي بي في مراد أحدُّه
يرى جسمه يكسي شفوفاً تربه فيختار أن يكسي دروعاً تهده

ويقول ابنُ الجوزي عن نفسه: "ونظرت إلى علوِّ همتي فرأيتها عجباً، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها. وأريد استقصاء كل فن .. ثم أني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بشر، وزهادة معروف .. ثم إني أروم الغنى عن الخلق، وأستشرف الإفضال عليهم .. ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرَّقَ جمع الهمة، وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمعٌ بين أضداد". ويقول أيضا: "اللذات كلها بين حسي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح، وغاية اللذات العقلية العلم، فمن حصلت له الغايتان فقد نال النهاية".

ونفوسٌ أُخرى قلقةٌ وجلةٌ، لا تسْعَدُ في دنياها، ولا تهنأ بعيشها، ولو تحققت لها على أتمِّ وجهٍ كلُّ سبل السعادة. وهذه نفسُ الحسود، ونفسُ الجشع، ونفسُ المتشائم. ونفسٌ أخرى، كريمةٌ عزيزة، هي نفس الورع التقي الوجل، الذي غلب خوفُه من الله رجائَهُ، لذنوبٍ منه مضت، أو لغلبة طبعه، أو لعدم تمام علمه وتوازنه.

وأظن الناسَ يتفقون كثيراً في تعريفهم للسعادة، ونوع الشعور الذي توجده السعادةُ في النفس. ولكنهم يختلفون كثيراً في السُبل التي

يسلكونها، وفي الأسباب التي يأتونها لتحقيق هذه السعادة. وهذا الاختلاف في السُبُلِ والأسبابِ المسلوكة مردُّه إلى اختلاف الناس في معتقداتهم وعقولهم، وطبائعهم وعاداتهم، وتربيتهم وتجاربهم، ونحو ذلك من المؤثرات. فما يكون سبباً لتحقيق السعادة لإنسان، هو نفسه سبباً لتعاسة آخر. فالمؤمن مثلا لن يسعده الحرام، كالخمر والزنا، فخوفه من الله وإيمانه بسوء عاقبة الحرام، تمنعه من تحقيق السعادة بالفعل الحرام، وإن غلبه الهوى والشيطان فهو قلقٌ خائفٌ حال ملابسته للحرام، وهو متندمٌ متحسرٌ متأففٌ بعد صحوته وإفاقته من سكرة الشهوة الحرام.

الدِّينُ والسعادة

هل السعادة في الحياة الدنيا مرتبطةٌ بالدين الصحيح، بالإسلام والإيمان، والتوحيد والطاعة؟ وهل من ضلَّ عن الدين الصحيح، من الكفار، من يهودٍ ونصارى، ومجوس وبوذ وغيرهم، ضلَّ عن طريق السعادة في الدنيا؟ وهل من لا دين له من الدهريين، الذين لا يؤمنون بحياة بعد الموت، يمكن لهم تحقيق السعادة في الدنيا؟

إنَّ دينَ الإنسان، الذي يدين ويؤمن به، ويعتقد صحته وصوابه، أيُّ دينٍ كان هذا الدين، هو الذي يذهب بالإنسان إلى ما وراء هذه الحياة الدنيوية القصيرة. وهذا الدين يَعِدُه ويمنيه بحياة بعد موته، يكون له فيها نعيمٌ وسعادةٌ إنْ هو أصلح وأحسن في دنياه، وله بؤسٌ وشقاء إن أفسد فيها وأساء. هذا ما يؤمن به المسلم، وكذلك اليهودي والنصراني، بل وغيرهم من أتباع الديانات المختلفة. فالدين، أيُّ دين، يحقق للإنسان الأملَ الذي يمتد إلى ما بعد موته، أملٌ بسعادةٍ تامةٍ دائمةٍ، له فيها كل ما يتمناه ويشتهيه. وهذا الأمل بالفوز بالجنة، وتحقيق السعادة التامة فيها، يسبب للإنسان السعادة في دنياه، وإن لم يتحقق له فيها ما يتمناه.

وكذلك الدين له الأثر البالغ العظيم في تخفيف حدة الخوف والجزع من الموت، الذي هو منغصُ اللذات، ومكدر السعادات،

بل ربما أزال الدين هذا الخوف بالكلية، وقد يصل الدين بصاحبه إلى درجة طلب الموت والشوق له. فالدين يجعل من الموت انتقالاً من دار إلى دار، من نوع حياةٍ إلى نوع حياة آخر، نقلةٌ إلى دار يرى فيها هذا المتدين خلودَهُ وسعادته، ونعيمه ولذته. وقد قيل: إذا أردت أن تكون سعيداً يوماً واحداً، فكلْ لذيذاً. وإذا أردت أن تكون سعيداً أسبوعاً، فسافرْ. وإذا أردت أن تكون سعيداً شهراً، فتزوج. وإذا أردت أن تكون سعيداً حياتك كلها، فعليك بالدين.

فإذا كانت هذه منزلة الدين لزرع الأمل، وطرد المخاوف، فهل هو ضروريٌ لتحقيق السعادة في الدنيا، دون اعتبار لصحة هذا الدين وبطلانه، ما دام صاحبه يعتقد صحته، ويرجو منه الفوز والنعيم بعد موته. أم أن صحة الدين شرطٌ لازمٌ لتحقيق السعادة الدنيوية من الدين؟

وهل السعادةُ الدنيوية مستحيلةٌ في حق من لا دين له، من الملحدين، والدهريين، الذين لا يعرفون إلا الدنيا، وينكرون بعثاً وحساباً، وجنةً وناراً ؟

فهؤلاء كيف يحققون السعادة، وهم يعلمون أنهم يموتون، والموت فنائهم ونهايتهم كما يظنون. أفلا يكدر عليهم هذا الاعتقاد كل سعادة تتحقق لهم. ثم كيف يحققون السعادة إذا فاتتهم اللذات والشهوات الدنيوية، لمرض أو فقر، لفقد ولد وحبيب، لعداوة

قريب، وخيانة صديق، وهم لا يرون إلا الدنيا. هل يحققون سعادتهم من خلال تربية النفس، وتوجيه السلوك، وبالتكيف مع هذا الاعتقاد، والتمتع والسعادة بالممكن تحقيقه، وإن قل، من اللذات والشهوات، البدنية والنفسية والذهنية.

المشاهدة والتأمل لأحوال الناس في هذه الدنيا، لأصحاب المعتقد الديني الصحيح، دين الإسلام، ولأصحاب الديانات الباطلة التي تؤمن بالآخرة والجنة والنار، أو الثواب والعقاب بعد الموت، وللملحدين والدهريين الذين لا يؤمنون إلا بالدنيا. المتأمل لهم يجد عند كل فريق منهم، سعيداً مبتهجاً بدنياه، وشقياً تعيساً في دنياه. وسبب السعادة عند هذه الفرق متنوع، فالمتدين قوة إيمانه وضعفه، هو المؤثر الأول لسعادته وتعاسته، ثم تتبعه قوة النفس وضعفها، وتحقق الأسباب وفواتها. والملحد يفوته سببٌ مؤثرٌ لتحقيق السعادة وهو الدين، ويبقى لديه قوةُ نفسه، ونوعُ طباعه وسلوكه، ثم تحقق أسباب السعادة الدنيوية الأُخرى وفواتها.

والنصوص من الكتاب والسنة تدل لصحة ما تقدم، أنَّ الدينَ الصحيح عاملٌ مهم من عوامل السعادة، لكنَّ الله جعل للسعادة الدنيوية أسباباً أخرى، لحكم عظيمة من الحكيم الخبير. وإليك الأدلة، الدليل الأول: قول الله تعالى عن الكفار: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم

بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ) [الأحقاف:٢٠]، وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوى لَّهُمْ) [محمد:١٢]، وقوله تعالى: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [الحجر:٣]، وقوله تعالى: (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [الزمر:٨]، ففي هذه الآيات الكريمات يذكر الله تعالى أن الكفار تمتعوا بدنياهم، وأنهم أخذوا حظهم منها، وأذهبوا طيباتهم فيها، ومَنْ تمتع وأخذ حظه من الدنيا حريٌ بتحقيق السعادة فيها.

الثاني: قول الله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ) [الشورى:٢٠]، وقوله: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ) [هود:١٥]، ففي الآيتين الكريمتين بيانٌ من الله تعالى أن من كانت هِمَّتُه للدنيا، لا يريد سواها، ولا يعمل صالحاً إلا لأجلها، خلقه الحسن، وبرُّهُ وإحسانه، وأمانته وصدقه، وكلُّ صالحٍ يعمله هو لأجل الدنيا، فهذا كفرُه وشركه قد أبطل عليه ثوابَ الآخرة، ووفَّاهُ اللهُ نصيبه في دنياه على حسب ما أراده وتمناه. قال الضحاك رحمه الله في تفسير الآية: "من عمل عملا صالحا في غير تقوى - يعني من أهل الشرك - أُعطي على ذلك أجراً في الدنيا، يصل رحماً، يعطي سائلاً، يرحم مضطراً، في

نحو هذا من أعمال البر، يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، ويوسع عليه في المعيشة والرزق، ويقر عينه فيما خوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا في نحو هذا، وليس له في الآخرة من نصيب"[1]. فمن أخذ حرث عمله في دنياه فقد أناله الله فيها ما يتمناه من السعادة والمتاع.

الثالث: أخبرنا رسولُنا صلى الله عليه وسلم أنَّ النار قد حفت بالشهوات، وأنَّ الجنة قد حفت بالمكاره. قال صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا خلَق اللهُ الجنةَ والنارَ أرْسَلَ جبريل إلى الجنةِ، فقال: انظُرْ إليها وإلى ما أعْدَدْتُ لأهلِها فيها، قال: فجاءَها ونظَر إليها وإلى ما أعَدَّ اللَّهُ لأهلِها فيها، قال: فرجع إليهِ قال: فوَعِزَّتِكَ لا يَسمَعُ بها أحَدٌ إلَّا دَخَلَها، فأمَرَ بها فحُفَّت بالمَكارِهِ، فقال: ارجِع إليها فانظُر إليها وإلى ما أعْدَدْتُ لأهلِها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي حُفَّت بالمَكارِهِ، فرجع إليه. فقال: وعِزَّتِكَ لقد خِفْتُ أنْ لا يَدْخُلَها أحَدٌ. قال: اذهب إلى النارِ، فانظر إليها وإلى ما أعْدَدْتُ لأهْلِها فيها، فإذا هي يَرْكَبُ بَعضُها بَعضًا، فرجَع إليه، فقال: وعِزَّتِكَ لا يَسمَعُ بها أحَدٌ فَيَدْخُلَها، فأمَرَ بها فَحُفَّت بالشَّهَواتِ، فقال: ارجع إليها فرجع إليها، فقال: وعِزَّتِكَ لقد خَشيتُ أنْ لا

[1] تفسير الطبري

يَنجوَ منها أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَها) [حسن صحيح[1]]. **فغالبُ أصحاب النار هم الذين قد خاضوا في هذه الدنيا في الشهوات، وغالبُ أصحاب الجنة هم الذين تكبدوا فيها المكاره والمشاق. والسعادة في الغالب تبعٌ لنيل الشهوات واللذات.**

الرابع: أنَّ الله أراد الدنيا دارَ عملٍ وابتلاء، والآخرةَ دارَ حسابٍ وجزاء. وهي عند الله هينة، لا تساوي شيئاً، يعطيها لمن أحب ومن أبغض، للمؤمن والكافر، وللتقي والفاجر، وللمطيع والعاصي، قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الله يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الإيمانَ إلا من أحب) [صحيح[2]]. **فالدنيا تكون للكافر كما تكون للمؤمن، لهوانها على الله تعالى، فالكافر قد يحصل فيها الذي يطلب ويريد، الزينة التي يحب، والشهوات التي يشتهي، وأمانيه التي يتمنى، وأهدافه التي لها يسعى، نجاح وزينة وشهوة توصله للسعادة التي يريد.**

والسعادة الدنيوية في العادة تابعة لمن آتاه الله الدنيا، فلا يستقيم أن تكون الدنيا لمن لا سعادة له فيها. قال الله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

---

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة/الرقم: ٢٥٦٠، خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح

[2] الراوي: عبدالله بن مسعود، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: ٤٨٢/٦، خلاصة حكم المحدث: على شرط مسلم، غير "مهران" هذا فلم أجد من ترجمه.

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [طه:١٣١]. فالله يعطيهم ما يشاءون من لذات الدنيا، بل لولا رحمة الله تعالى بالناس أن لا يجتمعوا على الكفر، لأعطى كلَّ كافرٍ كلَّ شهوةٍ ولذةٍ يطلب ويتمنى، قال الله تعالى :(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) [الزخرف:٣٣]. والأدلة الثابتة الصريحة غيرها كثير.

وقد يعترض بعض الفضلاء، ويقول بل حياة الكافر ضيقٌ وشقاء، ويستدل بعدم إمكانيةِ تحققِ السعادةِ للكافر، ذي الدين الباطل والملحد، بقصص الكثير من الكفار، من مشاهيرهم وأغنيائهم، ممن حصلوا كل اللذات والشهوات، وكانوا مع ذلك في جحيم وعذاب، ومعاناة وشقاء، ساقهم إلى المخدرات، هربا من الواقع والحقيقة، بل ساق بعضهم إلى الانتحار، هرباً من الضيق والهم العظيم الذي كانوا يعيشونه. فهذا وإن وقع لبعض منهم، فكثير منهم لم يعانوه، وعاشوا حتى الممات في اللذات والشهوات، وفي الصحة والمال، وفي الجاه والسلطان.

ويستدلون كذلك لذلك بقول الله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه:١٢٤]، على أن معيشة الكافر في الدنيا ضيقةٌ تعيسةٌ، لا سعادة فيها ولا راحة.

وهذا الاستدلال بالآية الكريمة، يخالف ما ذهب إليه الكثيرُ من المفسرين في تفسيرهم لها. قال الطبري في تفسيره: "واختلف أهل التأويل في الموضع الذي جعل الله لهؤلاء المعرضين عن ذكره العيشة الضنك، والحال التي جعلهم فيها، فقال بعضهم: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم، وذلك أنهم جُعل طعامهم فيها الضريع والزقوم .. وقال آخرون: بل عنى بذلك أنَّ له معيشةً في الدنيا حراماً، ووصف الله جل وعز معيشتهم بالضنك، لأن الحرام وإن اتسع فهو ضنك .. وقال آخرون: إنما قيل لها ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقون ما ينفقون من أموالهم على تكذيب منهم بالخُلْفِ من الله، وإياسٍ من فضل الله، وسوءِ ظنٍ منهم بربهم، فتشتد لذلك عليهم معيشتُهُم وتضيق .. وقال آخرون: بل عنى بذلك أنَّ ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر .. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، فعن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أتدرون فيم أنزلت هذه الآية : (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده أنه ليسلط عليه تسعةٌ وتسعون تنيناً، أتدرون ما التنين: تسعةٌ وتسعون حيةً، لكلِّ

حيةٍ سبعةُ رؤوس، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة) [حسن[1]].

وإنَّ اللهَ تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)، فكان معلوما بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشد منه، بطل معنى قوله: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى). فإذا كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بينا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلُّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيراً منهم أوسع معيشةً من كثيرٍ من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدل على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صح الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ"[2].

---

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ٣٥٥٢، خلاصة حكم المحدث: حسن

[2] تفسير الطبري، بتصرف واختصار.

ولو قيل أنَّ المعيشة الضنك لهم جميعاً في القبر والآخرة، ولبعضهم في الدنيا، فهو الصحيح، الذي تجتمع النصوص عليه، ويتفق مع الحال والمشاهدة.

الطبع والسعادة

في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - قال: (أنَّ جدَّهُ حَزَناً قدِمَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: ما اسمك ؟ قال: اسمي حَزَن، قال: بل أنت سهل. قال: ما أنا بمغيرٍ اسماً سمانيه أبي، وفي رواية قال: السهل يوطئ ويمتهن. قال ابنُ المسيب: فما زالت فينا الحزونة بعد).

في هذا الحديث يقول التابعي الجليل أنَّ فيه وأهله طبعاً، ولدوا وهو فيهم، وهو طبع الحزن. فالشعور بالحزن موجود في آل المسيب، من طباعهم وصفاتهم التي جبلوا عليها. فالإنسان يولد بصفات بدنية خاصة في الغالب أنه ورثها من والديه وأجداده، ويولد بطباع سلوكية خاصة في الغالب أنه كذلك ورثها منهم. فذو البشرة السمراء آبائه في الغالب سمرٌ، والشقراء آبائها في الغالب شقر، وكذلك الكريم الغالب في آبائه الكرم، والشجاع الغالب في آبائه الشجاعة. وترى الناس ينكرون ويتعجبون من الرجل يخالف طباع آبائه، فيقال للرجل إذا بخِلَ وكان معروفا عن أهله الكرم، يقال له: من أين أتاك البخل؟ تعجباً واستنكاراً.

وقال زهير شعراً:

فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة وتغرس إلا في منابتها النخل[1]

ويدل لذلك قصة أشجِّ عبدالقيس رضي الله عنه، فإنَّه حين وفد مع قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسرع قومُهُ إليه لمَّا رأوه، وتأخر هو حتى لبس حلته ثم أقبل في سكون وتؤدة، فقال له رسول الله: (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، قال: وما هما يا رسول الله؟ قال: الأناة والتؤدة، قال: أجبلاً جُبلت عليه أو تخلُّقاً مني؟ قال: بل جبلٌ. قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله)[2].

وهذه الصفات المتوارثة، الخَلْقية والخُلُقية، يثبتها العلم الحديث، في علم الوراثة والجينات، حيث تنتقل الصفات الوراثية من الآباء للأبناء في جسيمات دقيقة تسمى الكروموسومات، ويقولون في كل خلية من جسم الإنسان ستةٌ وأربعون كروموسوماً، نصفٌ من الأب ونصفٌ من الأم، وفي هذه الستة وأربعون كروموسوماً آلافٌ من

---

[1] يقول: أن الرماح المشهورة بالجودة والصلابة، لا تتخذ إلا من شجرها الأصيل، ولا ينبت النخل إلا في المواطن الصالحة لإنمائه. ومراده: أن الكريم لا يأتي إلا من عنصر كريم.

[2] الراوي: مزيدة جد هود العبدي، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد، الصفحة أو الرقم: ٣٩١/٩، خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف، وأصل الحديث في صحيح مسلم برقم: ١٢٦.

الجينات. وأن الإنسان يبدأ خلقُه خليةً واحدةً تكونت من اقتران حيوانٌ منويٌ واحد ببويضةٍ واحدة. ومن المعجز اللطيف[1] أنَّ أهلَ هذا العلم يشبهون الكرموسوم بالعقد والجينات باللؤلؤ تكون معلقة بالعقد، وفي اللغة جمع النُطْفة، التي هي أول خلق الإنسان، نُطَف، ومن معاني النُطَف[2] اللؤلؤ الصغار الصافي اللون. وهذا إعجاز علمي للقرآن الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه، أظنه جديداً، لم يذكره أحدٌ من قبل.

هذه المعرفة تهون على الإنسان الحزين طبعاً حزنه، وتبعده عن اتهامه لنفسه، وتنقصه لذاته. فكثيرٌ من الناس يرمي سبب حزنه وتعاسته على نفسه، على مكاسبه الدنيوية، وعلى أخلاقه وآدابه، وعلى أقواله وأفعاله، وعلى فطنته وذكائه، وعلى خِلْقته وهيئته، فيزداد بهذا الاتهام للنفس حُزناً وشقاءً. فإذا فطَنَ أنَّ الحزن طبعٌ من الطباع التي وُلد بها، وأنه لا حيلة له فيه، ولا سبب منه إليه، هان عليه الأمر، وتعايش معه، وتعامل معه بصورة أحكم وأعقل.

ولا يعني أبداً كون الإنسان يولد بطباع سيئة أن يستسلم لها، وأن ينقاد معها، بل عليه أن يجاهد نفسه لتغيير ما لا يرتضيه من طباعه إلى ما يرتضيه، وله في ذلك أجرٌ وثواب من الله تعالى مع ما يحقق

---

[1] هذه المعرفة من فضل الله تعالى، ولا أدري إن كان أحدٌ ذكرها من قبل.

[2] في لسان العرب: والنَّطَف والنُّطَف: اللؤلؤ الصافي اللون، وقيل: الصغار منها، وقيل: هي القِرَطةُ، والواحدة من كل ذلك نَطَفة ونُطَفة، شبهت بقَطْرة الماء.

له هذا التغيير من حياة أسعد وأهنأ. فالبخيل طبعاً يجاهد ليصبح جواداً، والجبان طبعاً ليصبح شجاعاً، والغضوب طبعاً ليصبح حليماً، وكذلك الحزين طبعاً ليصبح سعيداً. وقد رُوي حديث (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه) [حسن[1]].

ومن الناس من لا يؤمن بإمكان تغيير الطبع ، فصاحب الطبع أبداً لا يغير طبعه، ولو تخلق بخلق ضد طبعه فسرعان ما يسأم ويعود لطبعه، وقد قيل مثلاً: الطبع غلاب، وقيل شعراً:

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها[2]

وقيل:

كل امرئ راجع يوما لشيمته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين[3]

وهذه أعرابيةٌ عجوزٌ لقيت ذئباً صغيراً فقد أمه، فأشفقت عليه وربته مع غنمها، يشرب من حليبها، فلما كبر الذئب افترس الشاة التي أرضعته، فقالت فيه:

---

[1] الراوي: أبو الدرداء وأبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٢٣٢٨، خلاصة حكم المحدث: حسن

[2] كثير عزة، والخيم الخلق

[3] ذو الإصبع العدواني

أكلت شويهتي وفجعت قلبي وأنت لشاتنا ولد ربيب
شربت لبانها و ربيت فينا فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يفيد ولا أديب

ومن الناس من يؤمن بإمكان تغيير الطبع، متى ما وجدت الرغبة والعزيمة والمثابرة، ويُستدل له بقول الله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس:٧-١٠]، وقال المتلمس:

تجاوز عن الأدنين واستبق ودهم فلن تستطيع الحلم حتى تحلما

وهذا القول هو الصحيح، ولكن ليست كل الطباع سواء، فبعض منها سهل تغييره، وبعضٌ ممكن، وبعضٌ صعبٌ عَسِرٌ تغييره. فإذا كان الحيوان يغير طبعه، بالتدريب والتمرين، فيصبح الفرس بعد جموحِه ذلولاً. فكذلك الإنسان يغير طبعه بالتصنع، تصنع الطبع المراد، حتى يعتاده ويصبح سجيةً له، قال ابن القيم: "من أراد أن يتطبع فليتصنع".

والتجارب الإنسانية تثبت نجاح كثير من الناس في تغيير طباعهم بعد إدراكهم لطبعهم، واعترافهم بسوئه، وشديد رغبتهم في تغييره، ومجاهدتهم لأنفسهم لتحقيق هذه التغيير، من خلال بذل الأسباب، وتجربة الأساليب التي تسوق إلى تغيير الطبع إلى ضده.

فالغضوب يجاهد نفسه لكظم غيظه مراتٍ ومرات حتى يعتاد الحِلْمَ، وكذلك الجبان يعرض نفسه للمواقف التي تتطلب الشجاعة مراراً وتكراراً حتى يعتادها وتصبح سهلة عليه. وأظن البخل من ألصق الطباع وأعصاها على التغيير، ولولا لصوقُهُ بصاحبه لمَّا تحمَّلَ بسببه حرمانه لنفسه وأهله وأحبابه.

وهكذا يجب على الحزين طبعاً أن يجاهد نفسه لتحقيق السعادة، بتغيير أفكاره الجالبة للحزن بأفكار تجلب السعادة، وكذلك بتغيير كل سلوك وخلق، وفعل وقول، مسببٌ للحزن وجالبٌ للهم. والأمر يحتاج إلى صبرٍ ومثابرةٍ، وتكرارٍ ووقتٍ، حتى يتدرج الإنسان في تغيير الطبع السيء إلى الطبع الحسن. تماماً كما يحتاج الإنسان إلى الجد والمثابرة والوقت والمنهج الصحيح لتغيير جهله إلى علم، أو كسب مهارة جديدة كالسباحة.

العقل والسعادة

كما يختلف الناس في قوتهم الجسدية، فمنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم بين ذلك. كذلك هم يختلفون ويتفاوتون في مقدرتهم العقلية، فمنهم الفطن الذكي، ومنهم المغفل الغبي، ومنهم بين ذلك. فهل للعقل أثرٌ في تحقيق السعادة ؟ هل العباقرة الأذكياء هم أكثر تحقيقاً للسعادة، أم البُلَّهُ الأغبياء هم الأوفر حظاً ونصيباً، كما قاله المتنبي شعرا:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

إنَّ سعادةَ الإنسان مكونةٌ من ثلاثة مؤثرات: المؤثرات الذاتية الخاصة به كعقيدته ودينه وقِيَمِهِ وأخلاقه وطباعه، والمؤثرات الخارجية التي له نوع تصرف وتحكم فيها مثل علاقاته مع الناس، ونوع عمله وكسبه، وتكوينه وتصويره لتجاربه وخبراته، ومؤثراتٌ خارجيةٌ لا تصرف له فيها، مثل هيئته وحظه وبعض طباعه.

وهذا الفصل للحديث عن تأثير قوة العقل على سعادة الإنسان وتعاسته، بعد تحييد كلَّ العوامل والمؤثرات الأخرى، وذلك بافتراض تماثلها. فهل الذكي المؤمن الغني، أسعد من الأبله، المساوي له في الإيمان والمال وبقية المؤثرات.

الذي أظنه، أنَّ الذكي أكثرُ استمتاعاً بالسعادة إذا تحققت أسبابُها له، فهو أكثر استمتاعاً بماله، وبقوته، وبصحته، وعلمه، وأخلاقه، وأحبابه، وأصحابه، وبكل قولٍ نفيسٍ يسمعه، وبكل منظرٍ جميلٍ يشاهده. فقوة عقله تكشف له الكثيرَ من مواضع الإبداع والجمال في الحياة، وتعمق إحساسَهُ بهذا الجمال، ومعايشته له، واستمتاعه به.

والذكي أيضا، هو أكثرُ هماً وتعاسةً وبؤساً، إذا تحققت أسبابُ التعاسة له، فعلمه ومعرفته بقيمة المال والصحة والأحباب تجعله أكثرَ تعاسةً وندماً إذا فقدها ولم يحصل عليها. وهو أيضا أكثر معرفةً وإحساساً بقبح القبيح، فيكون تألمُه به أكثر من تألُّمِ غيره به. فألمُهُ بالظلم الذي يعيشه الناس في هذا العالم، كفرهم وفسقهم، فقرهم وجوعهم، قتالهم وبغيهم، ألمٌ عميق مؤثر، وكذلك توَّجُعُه من قبح أخلاق صديقه كبير، واشمئزازه من كلمة قبيحة قيلت شديد.

ولأن أسباب السعادة والسرور في هذه الحياة الدنيا أقل بكثير من أسباب التعاسة والشقاء، كان العقل والذكاء عند الكثير سبباً في زيادة الألم والهم والضيق.

وإذا انتقلنا إلى المسألة الأكبر، وإلى الأثر الأعمق والأبعد لعلاقة العقل مع السعادة، وهي العلاقة بين قوة العقل ومعرفة الحق، أو

بين الذكاء والإيمان بالله تعالى. والتي بها يحقق الإنسان السعادة التامة الحقيقية.

فهل الفطن الذكي أكثر حظاً في معرفة الله تعالى، وتحقيقاً للإيمان وتحصيل الأعمال، والأبله الغبي هو أكثر عُرضةً للضلال وعدم الاهتداء إلى الحق، وإلى التقدير الصحيح لقيمة الأعمال الصالحة فيقع في التفريط والتضييع.

الذي أظنه، والله تعالى أعلم، أن المقدار العقلي، أو المستوى الذهني، الذي يَحْصُلُ عند تحققهِ تكليف الإنسان، تكليف الله تعالى له بتحقيق الإيمان والعبادة والعمل على الوجه الصحيح، والكتابة لعمله ومحاسبته عليه، هذا المقدار من العقل والذكاء يحصل بوصول الإنسان لسن البلوغ، مع انتفاء صفة الجنون عنه.

وهذا المقدار العقلي الذي يكفي الإنسان لمعرفة ربه، وحقه عليه، ومعرفة رسالة ربه للناس عند بلوغها له، ما زاد عنه لا تأثير له في تحقيق السعادة في الآخرة، بل هذه الزيادة في العقل تكون نعمةً لبعضٍ، ونِقْمةً لآخرين.

هذه الزيادة في العقل في أصلها نعمةٌ من الله تعالى على بعض عبيده، تماماً كما ينعم على بعضهم بزيادة جمال وأخلاق، وهي أيضا ابتلاءٌ لهم بهذه النعمة، فمن شكرها، ووضعها في موضعها

نفعته في آخرته ودنياه، ومن كفر هذه النعمة فوضعها في غير موضعها زادته خبالاً وضلالاً، وهماً وتعاسةً في آخرته ودنياه.

وتعليل ما سبق، أن الله تعالى عدلٌ، يحب العدل، ويكره الظلم، وهو لا يظلم الناس شيئا، قال الله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء:٤٧]. لذا كان التكليف بمعرفته، ومعرفة دينه وكتابه ورسله، وعبادته وأمره ونهيه، التكليف بذلك واستحقاق الثواب أو العقاب تبعاً لمشيئة الإنسان واختياره لعمله، مرتبطاً بتحقق أمرين، ببلوغ الرسالة من الله لعباده بواسطة رسله الذين أختارهم واصطفاهم، قال الله تعالى: (مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) [الإسراء:١٥]. والثاني بقدرة عقل الإنسان على فهم هذا الأمر وإدراكه، وهذا يحصل له بعد بلوغه مع انتفاء مرض الجنون والعته عنه، قال صلى الله عليه وسلم: (رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وفي رواية وعن المجنون وفي لفظ المعتوه حتى يعقل أو يفيق، وعن الصبي حتى يكبر وفي رواية حتى يحتلم) [صحيح[١]]، فالمستوى العقلي

[١] الراوي: عائشة، المحدث: الألباني، المصدر: إرواء الغليل، الصفحة أو الرقم: ٤/٢، خلاصة حكم المحدث: صحيح على شرط مسلم

المطلوب لحصول التكليف هو البلوغ وما ينفي صفة الجنون والعته عن الإنسان.

فهذا الأمر العظيم، توحيد الله وعبادته، أمرٌ سهلٌ فهمه وتعلمه ومعرفته، لا يحتاج إلى وقت ولا إلى فطنة وذكاء، وتعين الفطرةُ التي فطر الله تعالى الناسَ جميعاً عليها، أن للخلق خالقاً واحداً عظيماً مستحقاً وحده للعبادة والتأليه، فهذه الفطرة تعين على الفهم والقبول والاستسلام.

والله سبحانه وتعالى قد أمتدح العقل في كتابه العزيز، وامتدح العقلاء وأثنى عليهم. والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: (لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة:١٦٤]، وقوله تعالى: (قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) [الأنعام:٩٨]، وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الرعد:٣]، وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى) [طه:٥٤]، وقوله: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر:٩].

كما أمر الله تعالى الإنسان وحرضه على النظر والتدبر والتفكر، لمعرفة الحق والاهتداء إليه، قال الله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) [العنكبوت:٢٠]، وقال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) [محمد:٢٤]، وقال الله ممتدحاً المتأملين المتفكرين من خَلْقِه في خَلْقِهِ:

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ) [آل عمران:١٩١].

وأصحاب الألباب في القرآن الكريم، هم أهل العقل والحِجْر، العقلانيون حقاً، المستحقون لهذا الوصف دون غيرهم، هم الذين استفادوا بعقولهم في تحقيق المعرفة بالله تعالى والإيمان به، ومعرفة الدين الصحيح الذي يقبله الله ويرتضيه، وتحقيق التقوى بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه. وليس اللبُّ والعقل والعقلانية الممدوحة في الشريعة هي مقدار العقل والذكاء، وقوة العقل في التحليل والاستنباط، والتذكر والاستذكار، والابتكار والاختراع، الذي هو المقياس في عرف الناس.

ومن قوة العقل وصحته، ادراكُهُ لحدود علمه ومعرفته، فمن أفاده عقله ضرورة وجود خالق للخلق، دلت عليه آياته الكونية، ودلت عليه رسلُه بما معهم من المعجزات والآيات، ودلت عليه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بوجود خالق مبدع مدبر لهذا الكون والخلق. ثم أفاده عقلُه معرفة حدود عقله، وأن ما يعلمه قليل، والذي يجهله كثير، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) [الأسراء:٨٥]. وأفاده عقله أن ما يجهله عن ربه، وعن حكمته في أمره ونهيه، وخلقه وتقديره، ليس حجةً له ليجحد ربه، ويكفر به. فما عرفه وعلمه حجة عليه في

وجوب الإيمان بالله وعبادته، وما جهله ابتلاء له بالاستسلام لله، وتحقيق العبودية له.

ومن طغى عقلُه، ورام عِلْمَ ما حُجب عنه، ولا سبيل له إليه، ضلَّ الطريق للحق، وما اهتدى لهدىً وعلم. بل طغيان عقله دليل نقصانه، حين لم يقفْ عقلُه بعقلِه عند حدوده، وقد قيل: "من لم يحترز بعقله، هلك بعقله". وكان ما سلكه لتحقيق سعادته ظنونٌ، ساقته إليها شياطينٌ، تزين له أهوائَهُ وشهواته. قال تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ) [الأنعام:١٤٨]، وقال تعالى: (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى) [النجم:٢٣].

الموت والسعادة

قال كعب الغنوي في مرثيته المشهورة:

لقد أفسد الموتُ الحياةَ وقد أتى على يومِهِ عِلْقٌ عليَّ حبيبُ
أتى دون حلْوِ العيش حتَّى أمرَّهُ نكوبٌ على آثارهنَّ نكوبُ

الموت حقيقة، وهو حتمٌ لابد منه لكل نفس، قال الله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) [العنكبوت:٥٧]. والموت فراق، فراقٌ للأهل والأحباب، فراقٌ للمال والممتلكات، فراقٌ للدنيا وما فيها من لذاتٍ وشهوات.

فالموت هادم للذات، كما أخبر بذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم، فالموت إذا هجم على العبد ذهبت كلُّ لذاته، وكلُّ أفراحه، وكلُّ إنجازاته، تركها كلَّها وراءه وخلفه، ولم يأخذ منها شيئاً. والموت إذا ذكره الإنسان، كدَّرَ عليه نعيمَهُ وسعادته، وزهده في ما ملكه وحصَّله، وانقلب أمنُهُ خوفاً، وسروره حزناً.

من لا إيمان عنده حريٌّ أن يتناسى الموت دوماً، ولا يذكره أبداً، لأن ذكره تنغيصٌ ونكدٌ محض، فمشروع سعادته محصورٌ في هذه الحياة الدنيا فقط، وبموته تنتهي حياته، فلا شيء يؤمن به ويرقبه بعد موته. ولا شيء يترتب على ما عمله في دنياه. وهذا حال كثير

من الناس في هذا العالم، وإن انتسبوا لأديان سماوية منسوخة، فكثيرٌ منهم ملحدون لا يؤمنون بشيء، تماماً كحال أهل الجاهلية الأولى (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) [الجاثية:٢٤]، وهؤلاء حريصون على الدنيا، حريصون على تحقيق أكبر قدر من السعادة فيها، لأنها كلُّ شيء، فلا يتصور منهم التنازل عن أيِّ سعادةٍ ولذةٍ وشهوةٍ ممكن تحصيلها لتأثير تحصيلها السلبي على سعادةٍ بعد الموت لا يصدقون بها.

وهذا الصنف من الناس، الموت مكدرٌ له، إن كان في حياته سعادةٌ، أو بعضُ سعادة، أو حتى لو خلت من السعادة ولكن سلمت من الألم والمعاناة الشديدة. وهو لابدَّ سيواجه التفكير بالموت، وسيزداد التفكير به عند المرض، وعند الكبر، ولا سبيل له لتحقيق السعادة إلا بالتغافل عن الموت وتجاهله.

والمؤمن لا يمكن له أبداً أن يسلك لتحقيق سعادته في الدنيا مسلك الملحد، ولا أن يعيش مثل عِيشةَ الملحد، فلا يمكن له أن يلهو مثل لهوه، ولا أن يلعب مثل لعبه، ولا أن يستهتر مثله، وفي الاستهتار متعةٌ، فيفعل ما يشتهي ويشاء دون اعتبار لأحدٍ من الناس. ولا أن يقول ويؤمن بمقولة الملحد، الذي لا يرى إلا هذه

الدنيا، تمتع من الدنيا فإنك فانٍ. فالحياة عند المؤمن حياة الآخرة، والتمتع بالدنيا مقصور بما لا يضر متعة الآخرة.

والمؤمن مأمورٌ من ربه بالإكثار من ذكر الموت، فتذكره للموت سببٌ لتحقيقه السعادة الأتم والأكمل والأدوم. تذكره للموت تذكير بالحياة بعد الموت، بالحياة في القبر، وما فيها من السعادة والشقاوة، وتذكير باليوم الآخر وما فيه من الأمن والسعادة، وما فيه من الخوف والشدة، وتذكير بالجنة وما فيها من النعيم والسعادة، وتذكير بالنار وما فيها من العذاب والتعاسة.

تذكرٌ للموت فيه التسلية عن الدنيا، تسليةٌ للمحروم فيها عن ما فاته، من صحة ومال، وأهل وأحباب، وشهوات ولذات. وتذكرٌ للموت فيه التنبيهُ من سكرة الدنيا، تنبيهٌ لأهل النعمة أنهم مفارقوها، وتحذيرٌ أن تكون نِعْمتُهُم سببَ هلاكِهِم وخسارتهم.

والمؤمن يؤمن أنَّ الموت فيه راحتُهُ، فيه خلاصُهُ من همٍّ الدنيا ونصبها، وفيه خلاصه من سجنه، خلاصٌ من القيود التي تحكم شهواته ونزواته وخيالاته، كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن..) [صحيح[1]]**. ويؤمن أن الموت انتقالُهُ إلى دار سعادته، إلى دارٍ لا همَّ فيها ولا نصب، ولا قولٌ يكدر ولا حزن،**

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٩٥٦، خلاصة حكم المحدث: صحيح

بل سلامٌ كلها، له فيها كل ما يشتهيه من النعيم والسرور، نعيمٌ لا يزول ولا يحول، نعيمٌ لا ملل معه ولا ضجر.

وإذا كان المؤمنُ يؤمن بأن الموت جنتُهُ وراحته، فلماذا إذن خوفه من الموت؟ ولماذا حرصه على الحياة؟ وعلى طول عمره فيها. والجواب سهلٌ، دلت الشريعة عليه، وكذلك العقل يدل عليه، فالحمد لله الذي لم يُحَمِّل الإنسان ما لا طاقة له به، ويطلب منه ما لا يقدر عليه. ففي الحديث أن عائشة الصديقة رضي الله عنها لمَّا سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه، ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قالت: يا رسول الله! كُلنا يكره الموت. قال: (ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاء الله وأحبَّ اللهُ لقاءَهُ، وأنَّ الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكرِه اللهُ لقاءه) [صحيح[1]].

وهذه البشارة للمؤمن تكون عند قبض روحه، قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) [فصلت:٣٠]. **وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (..وما ترددت عن شيء أنا**

[1] الراوي: عائشة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ١٠٦٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح

فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته) [صحيح[1]].

فدلَّ الدليلُ أنَّ كراهةَ الموت أمرٌ لا إثم فيه ولا حرج، إلا في مواضع مثل ترك الجهاد الواجب خوفاً من الموت، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ)[براءة: ١٥]**. كما دلَّ الدليل على النهي عن تمني الموت لضرٍ حصل، من مرضٍ وفقر ونحوه، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لضرٍ نزل به، فإن كان لا بُدَّ متمنياً فليقُل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي)** [صحيح[2]]**. فخير الناس كما صحَّ بذلك الحديث من طال عمره وحَسُنَ عملُه، وشرهم من طال عمره وساء عمله.**

وسبب كراهية المؤمن للموت أمور، منها أن الإنسان مطبوعٌ على حُبِّ البقاء، وكراهية الموت. ومنها أنه لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فكل الناس خطَّاءٌ، كلٌّ له ذنوب يخشى عقوبتها، كلٌّ له سيئات يخاف رجحانها. فهذا الخوف سببُ كراهيته للموت، فهو يرجو بطول عمره التوبة من كل ذنب، والزيادة من كل خير. ومنها محبته

---

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: ١٦٤٠، خلاصة حكم المحدث: صحيح بمجموع طرقه

[2] الراوي: أنس بن مالك، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٦٨٠

لأهله، وشفقته على أولاده من بعده، خوفه عليهم أن يحزنوا، أو أن يضلوا، أو أن يضيعوا، فحرصه عليهم هو سبب لحرصه على حياة نفسه. روى المبرد في الكامل قصة رجل ماتت امرأته، فترك القتال خوفاً على بناته وحرصاً عليهم، فلما كان الليل وأَوَوا جميعاً، صاحت بنته الصغرى تطلب الماء، فتركها تصيح، حتى قامت أختها الكبرى وسقتها، فعلم أن الله لن يضيعهم، وخرج للقتال.

قد ذمَّ الله تعالى اليهود في القرآن الكريم، وذكر كثيراً من كفرهم وتعنتهم، وكِبْرِهم وغرورهم، وعصيانهم ومخالفتهم. ومما ذمَّهُ اللهُ تعالى من أخلاقهم شدةَ محبتهم للدنيا، وتعلقهم بها، وعدم تمنيهم الموت أبداً، وتمنيهم أن يُعَمَّرُوا في الدنيا دوْماً. قال الله تعالى: (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) [البقرة:٩٥]، وقال تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) [البقرة:٩٦].

فما الفرق بين كراهةِ الموت عند المؤمن حتى صار مباحاً، وكراهة الموت عند اليهود حتى صار نقصاً وذماً؟ الفروق كثيرة، منها والله أعلم: أن اليهود تزعم أنهم أبناء الله وأحباؤه، والمؤمن مقر بعبوديته وذله لله، ومن زعم أنه ابنٌ وحبيبٌ لله تعالى حريٌ به أن يتمنى الموت ولا يخشاه. ومنها أن اليهود خوفهم من الموت سببه سوء أعمالهم وذنوبهم، وكثير من المؤمنين خوفهم سببه تعظيمهم لربهم،

خوفٌ أداهم إلى احتقار أعمالهم الصالحة الكثيرة، والخوف من ذنوبهم القليلة الصغيرة. ومنها أنَّهم أحرصُ الناس على حياة وأعظمهم فرقا من موت، فالذمُّ لشدةِ الحرص، وشدةِ الخوف. ومنها أن اليهود لا يتمنون الموت دائماً وأبداً، بل هم عند الموت أشدُّ رغبةً في الحياة، وفرقاً من الموت، والمسلم المؤمن يتمنى الموت عند احتضاره، عند معاينته لملائكة ربه، التي نزلت لتبشره بمنزله في جنات ونعيم.

المؤمن والحَزَن

هل يصيب المؤمنَ الحُزْنُ والهَمُّ والضيق؟ هل تتكدر معيشته؟ هل تتنغص حياته؟ هل يقلق ويكتئب؟

لِهوان الدنيا على الله، ولأنها امتحانٌ للصبر على الإبتلاء، نعم يُصيبه كلُّ ذلك. قال الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) [يوسف:٨٤]**، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه، وتلك المدة ثمانون عاماً، وما كان على وجه الأرض عبدٌ أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام. وقال تعالى عن المؤمنين، حاكياً قولهم بعد فوزهم ودخولهم الجنة: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)** [فاطر:٣٤]**. وقال صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)** [صحيح[١]]**، وقال:**

[١] الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٥٦٤١

(لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة) [حسن[1]].

فالمؤمن يصيبه الحزن، وتفوته السعادة في الدنيا، لمرض يصيبه، أو لفقر يكابده، أو لفقد حبيب وولد، أو لضعف الإسلام وهوان أهله، وظهورِ الكفر وغلبة أهله. فليست السعادة في الدنيا أمراً موعوداً به المؤمن من ربه، بل الوعد بالسعادة له في الآخرة، والدنيا دارٌ أرادها الله لابتلاء وامتحان العباد، لتكليفهم بالطاعات، واجتناب السيئات والشهوات الحرام، قال الله تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت:٢].

وهذه قصص الأنبياء، فيها عبرةٌ وعِظَةٌ، ودليلٌ أن الدنيا ليست مقصودةً بالثواب والجزاء على الأعمال، فمنهم من قتله قومُهُ، ونشروه بالمنشار، ومنهم من مكر به إخوتُهُ، وباعوه بثمنٍ بخسٍ، ثم ظُلم وسجن، ولبث في السجن بضع سنين، ومنهم من أصابه المرضُ، سنين طويلة، حتى هجره الناسُ، ومسَّهُ الشيطان بنصبٍ وعذاب، ومنهم من ابتلعه الحوت، ولبِثَ في الظلمات، ظلماتِ بطن الحوت، وظلمات أعماق البحر، حتى نادى ربه: (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: تخريج مشكاة المصابيح، الصفحة أو الرقم: ١٥١١، خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن

[الأنبياء:٨٧]، ومنهم سيِّدُهم، آذاه قومُه، وعصوه وخالفوه، واتهموه وخونوه، وأخرجوه وقاتلوه.

فلو كانت الدنيا محلاً للسعادة، ومحلاً للجزاء والثواب، لنالوا منها النصيب الأوفى، والحظ الأعلى. نعم هم لقوة إيمانهم، مطمئنون بمعية ربهم لهم، صابرون على ما أصابهم، راضون بالمصيبة والبلاء، لمشاهدتهم حظهم منها.

وكذلك حالُ كثيرٍ من العلماء والصالحين، تسلط عليهم الجبابرة والمتكبرون، فسخروا وكذبوا، ونفوا وسجنوا، وعذبوا وقتلوا. قُتل خبيب وياسر وسمية وغيرهم، وعُذب وسجن أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهم، وحُرِّقَ أهل الأخدود واليوم أهل ميانمار، وسفك بالأمس التتارُ الدماء، واليوم يسفكها الباطنيةُ النصيرية والروافض في الشام والعراق.

ومن ظلم الإنسان لنفسه، وجهله بربه وبحكمته، وبحقيقة الدنيا ومراد الله منها، أن يحكم على نفسه والآخرين، ومنزلته ومنزلتهم عند رب العالمين، على حسب مقدار ما يحصله ويحصلونه من الحظوظ الدنيوية. فإذا كان في سراء، ظن أن الله راضٍ عنه فأعطاه، وإذا أصابته ضراء، ظن أن الله ساخط عليه فابتلاه.

والحقيقة التي دلت الآيات الكريمات عليها غير ذلك، فالله تعالى جعل الدنيا دار امتحان وابتلاء، قوم يبتليهم بالسراء، أيشكرون النعمة أم يكفرونها، وقوم يبتليهم بالضراء، أيصبرون على المصيبة أم يسخطونها. قال الله تعالى: (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا) [الفجر:١٥-١٧]**، قال قتادة رحمه الله: "ما أسرع ما كفر ابنُ آدم ! يقول الله جل ثناؤه: كلا، إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي".**

فمن أراد أن يعرف منزلته عند الله تعالى فلينظر إلى امتثاله لأمره، واجتنابه لنهيه، إلى محبته لله تعالى، ولدينه، وكتابه، ونبيه، إلى درجة إيمانه وتقواه. قال الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات:١٣]**.**

مَن السعيد حقاً

ذُكرت السعادة في القرآن، حين وصف الله تعالى في سورة هود حال الناس يوم القيامة، فجعلهم صنفين اثنين، صنف شقي، وصنف سعيد، قال الله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) [هود:١٠٥]، ثم بيَّنَ مَن هم الأشقياء، فقال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) [هود:١٠٦]. وبين مَن هم السعداء، فقال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ) [هود:١٠٨].

فأصحاب السعادة هم أهل الجنة خالدين فيها أبداً، يتنعمون بأنواع النعيم، الذي ما رأته عينٌ، ولا سمعته أذنٌ، ولا خطر على قلب بشر. يتمتعون ويسعدون فيها بهذا النعيم، الذي لا يفنى ولا ينقطع، بل يدوم ويدوم، بلا مللٍ ولا نقصٍ، وبلا تكديرٍ ولا تنغيصٍ.

ووصف رسولُنا صلى الله عليه وسلم السعيد، فأخبر أنه هو الذي كُتبت له السعادة في بطن أمه، عند نفخ الملك الروح فيه، فقال: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكاً فيُؤمرُ بأربعة: برزقه

وأجله، وشقي أو سعيد) [صحيح[1]]. فالسعيد من سَعِدَ في بطن أمه، وكُتبت له السعادةُ قبل ولادته، فالله عليمٌ حكيمٌ، عليمٌ بمَن هو أهلٌ للسعادة، ومَن هو أهلٌ للشقاوة. والله عليمٌ بالعباد، وما سيختارون ويشاءون ويعملون. ففي الآية والحديث، دليلٌ أنَّ السعيدَ هو من فاز بالجنة، والشقيَّ من خسرها، وكان في النار.

فالإنسان حياته لا تنتهي أبداً بعد نفخ الروح فيه، ولكن تبدأ بنفخ الروح وهو ابنُ مئةٍ وعشرين يوماً، ثم يبقى ولا يفنى، متنقلاً بين الدور الثلاثة، الدنيا ثم البرزخ، ثم الأبد في الجنة أو النار. وقومٌ يدخلون النار ويطهرون ثم يدخلون الجنة، ومَنْ دخل الجنة لا يخرج منها أبداً. قال الله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ) [هود:١٠٨]، وغير مجذوذ أي غير مقطوع.

وسعادة الإنسان عند كل عاقل، تقاس بمقدار أيام سعده بالنسبة لأيام شِقوته، فإذا كانت أيام الدنيا لا تمثل شيئاً يُذكر عند أيامه في البرزخ والآخرة، فهي كلمح البصر أو أقصر، فما مئةُ عام ونحوها يعيشها في الدنيا عند البلايين التي لا نهاية لها في الآخرة، قال تعالى: (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ

[1] الراوي: عبدالله بن مسعود، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٦٥٩٤

بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [المؤمنون:١١٢-١١٤]. فإذا كان الأمر كذلك، فلا اعتبار ولا حساب لأيام الدنيا عند قياس سعادة الإنسان، والمقياس كله لأيام الآخرة وحظه فيها، إن كان فيها من السعداء فلا أثر لأيام الدنيا وإن كانت كلها ألم وشقاء. وإن كان في الآخرة من الأشقياء، فكذلك لا أثر لأيام دنياه وإن كانت كلها سعد وأفراح. فالحياة هي حياة الآخرة، قال الله تعالى حاكياً تحسر الكافر: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) [الفجر:٢٤].

وعند الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا بجنة ونار، إنما هي الحياة الدنيا، الحياة تبدأ فيها، وتنتهي فيها، فهؤلاء حسابهم للسعادة مختلف، فالحساب والتقدير مقصور على أيام حياته في دنياه، على أيام سعادته فيها، وأيام شقاوته فيها. فكان بهذا الظن حريصاً على تحصيل كل سعادة ممكنة فيها، حريصاً على تكثير أيام سعده فيها، بكل وسيلة ممكنة، وبكل سبيل موصلة.

ومثل هذا حسرته عظيمة، وندامته كبيرة، إذا تعذر عليه بلوغ سعادته التي يريد، وفواتها عليه. حسرةٌ عند فوات الشباب والقوة، وحسرةٌ عند فوات الصحة والعافية، وحسرةٌ عند فوات المال والغنى، وحسرةٌ هي أعظم وأجل عند الموت، ومعاينة الجحيم، ومعايشة العذاب الأليم.

وبمقدار ضعف الإيمان واليقين عند الإنسان، يزداد تعلقه بالدنيا، والحرص على تحصيل سعادته ولذاته وشهواته فيها، ويغفل عن رؤية الآخرة، ومعرفة قدرها، وحساب سعادتها، فيواقع الحرام ويلابسه. وقد وصف رسولنا صلى الله عليه وسلم هذه الحال بقوله: (لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ، ولاَ يشربُ الخمرَ حينَ يشربُها وهوَ مؤمِنٌ، ولاَ يسرِقُ السَّارِقُ حينَ يسرِقُ وهوَ مؤمنٌ) [صحيح[1]]

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٥٥٧٨

الدنيا والسعادة

أخبر الله تعالى أن الإنسانَ خُلِقَ في كبد، قال الله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ) [البلد:٤]، قال عكرمة: في شدةٍ، وطلبِ معيشةٍ، وقال الحسن: يكابد أمراً من أمرِ الدنيا، وأمراً من أمرِ الآخرة. فحياةُ الإنسان كفاحٌ وجهاد، وسعيٌ وطلب، طفولته كثير منها في دراسة وامتحان، وشبابه جمع وبناء، وتهيئة وإعداد، ورجولته سعي وكد، ونفقة وتربية، وشيخوخته هي أرذل العمر، ضعف ومرض.

والحياة فيها ألم للجسد، في الكد والتعب، والضعف والمرض، وفيها ألم للنفس، كلمةٌ قبيحة تُسمع، وفعلٌ خبيثٌ يُشاهد، ونفسٌ لئيمة تخالط، وقتل وظلم، وخوف وهم، وحسد وجحد، وفيها مجاهدة للنفس، ومدافعة للشيطان.

والدنيا أيضا فيها زينةٌ وجمال، ولذةٌ وشهوة، فيها لذةٌ للعقل، ولذةٌ للسمع، ولذة للبصر، ولذة للبدن، ولذة للنفس، فيها سماء وبحر، وجبل ونهر، وروضة وزهر، وحب وود، ومال وبنون، وصديق

وأنيس، وترفيه وترويح، وسلام وابتسام. قال صلى الله عليه وسلم: (إن الدنيا حلوة خضرة) [صحيح[1]].

والدنيا أيضا فتنة وابتلاء، ومرحلة قصيرة في حياة الإنسان الأبدية، فالحياة فيها ليست الحياة التامة، قال الله تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [العنكبوت:٦٤]، فالآخرة هي الدار الدائمة الباقية، التي لا موت فيها ولا فناء. والدنيا متاعها وزينتها، ولهوها ولعبها، غرور لا يغتر به إلا المغرورون، قال تعالى: (وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) [آل عمران:١٨٥].

فالدنيا يجتمع فيها، أنها دارُ كدٍ وعناء وهم وشقاء، ودارُ لهوٍ ولعب ومتعة وأنس. فيجتمع فيها الحلو والمر، والجمال والقبح، والسرور والحزن، والطيب والخبيث، وغيرها كثير من الأضداد. وهي أيضا دار مؤقتة قصيرة يترتب عليها ما بعدها، أعمال مكتوبة محصاة، يجدها العبد في كتابه يوم يلقى ربه، فيحاسبه عليها، ولا يظلمه الله شيئا، فمن آمن وعمل صالحاً وأحسن نال سعادة الأبد، ومن كفر وعمل باطلاً وأساء، نال الشقاء والعذاب.

[1] الراوي: أبو سعيد الخدري، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٧٤٢.

والناس يختلفون في نظرتهم للحياة، وللسعادة فيها، اختلافٌ أصله الدين والطبع، وهم في ذلك أصنافٌ أربعة، الأول: وهو الأسوء، من لا يعلم للحياة معنى، ولا يعرف لها مغزى، ما يدري من خلقه، ولماذا خُلق، وهل بعد الموت شيء، أم هو النهاية والفناء، فهو في حيرة وشك. وهو مع هذا المعتقد، مرهف الحس، متشائم الطبع، كثير الفكرة دون علم واهتداء، متبرمٌ من كل شيء، من الصديق والناس، ومن الصيف والشتاء، ومن الليل والنهار، لا يرى معنى للفضيلة والإحسان، ولا فرق عنده بين الحسن والقبيح، فهذا هو الشقيٌ الخسران، الذي خسر الدنيا والآخرة.

الثاني: معتقده معتقد الأول، وطبعه ضد طبعه، لاهٍ في دُنياه، لا يفكر في عُقباه، يؤمن بالمحسوس المشاهد الموجود، ولا يؤمن بالغيب والآخرة، فما هي إلا الدنيا، يرى جوانب الجمال فيها، جمال الطبيعة، وجمال الناس، وجمال الأخلاق والآداب، وجمال الشهوات واللذات. وهذا يتمتع بدنياه، ويحقق سعادته فيها، إن تحققت له أسبابها، لكنها سعادة ناقصة، لأن الدنيا لا تخلو من التنغيص والتكدير، وسعادة مبتورة يقطعها الموت، وسعادة منسية متى ما مسه العذاب في الآخرة.

والثالث: متدينٌ يؤمن بالبعث والجزاء، والجنة والنار، دينُه، أيُّ دين كان، زهَّدَهُ بالدنيا، فاستوحش منها، وانقطع عنها، كدين الرهبان،

أو مسلمٌ غلا في دينه، وترك سنة نبيه، لضعف علمه، أو لغلبة طبعه. فهؤلاء طلبهم لسعادة الآخرة صرفهم بالكلية عن رؤية حظوظ الدنيا، وما فيها من الزينة والجمال، والحلال والمباح، والحسنات والطيبات. وهذا النوع من الناس، منهم بغلبة طبعه من لا يرى في الدنيا سعادة تستحق الطلب، ومنهم من يخالف طبعه، ويجاهد نفسه لترك كل سعادة في الدنيا، ومنهم من تجاربه القاسية وحظوظه السيئة ساقته للأنس بالآخرة والوحشة من الدنيا. وهذا الصنف فيهم من يتحقق له الأنسُ بعبادته، وخلوته وانقطاعه، فتكون هي سعادته وراحته، ومنهم من يمضي عمره كله في صراع ضد طبعه، وهو إلى سعادة وخير، إن كان دينُهُ الاسلام.

الرابع الأخير: يؤمن بالبعث والجزاء، والجنة والنار، ويرى في الدنيا سعادة يُطلب تحصيلُها ونيلها، متى ما لم تتعارض مع سعادة الآخرة. فسعادة الآخرة يَسعى لها، وسعادة الدنيا يسعى لها، ومتى تعارضت السعادتان، ترك سعادة الدنيا لأجل نيل سعادة الآخرة. وهو يدعو ربه لنيل السعادتين والحظين، قال الله تعالى: (ومِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [البقرة:٢٠١]، قال ابن كثير في تفسيره: "ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر. فإن كل الحسنة في

الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين. ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات وتيسير الحساب". وهذا الصنف هو أكملهم سعادة، إن كان على الدين الحق، الذي هو دين الإسلام الذي نسخ الله به كل الأديان، التي حرفها أهلها وبدلوها. وإن كان على دين باطل، فخسارته الكبرى خسارة الآخرة، وخسارته في الدنيا بمقدار ما حرم نفسه من اللذة والشهوة لأجل دينه الباطل.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يكلفهم ما لا يُطيقون ولا يستطيعون، وما أمرهم بشيء إلا وفيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، وما نهاهم عن شيء إلا وفيه الشر لهم في الدنيا والآخرة. فأحلَّ لهم الطيبات وحرَّمَ عليهم الخبائث، فالشراب والطعام أحل لهم الطيب منه، وحرم عليهم الخبيث، وكذلك النكاح واللباس، وكذلك الأقوال والأفعال.

ومن الناس من يوفق لتحقيق الرضا والسعادة حتى في كده وتعبه، وفي مرضه وضعفه، وفي فقره وخَلَّته، وفي سجنه وعزلته. فاستمتاعه بعمله وحبه له، جعله مسروراً سعيداً به مع تعبه فيه. ورؤيته لأجر

الصبر على البلاء حبَّبَ له البلاء، وتشوفه لأجر الفقراء ومنزلتهم زيَّنَ له الفقر، وإيمانه العميق للمبادئ التي لأجلها سُجن وعذب هوَّنَ عليه الضيق والحرج الذي هو فيه.

يقول شيخ الإسلام واصفا سعادته: "ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة"، ويقول ابن القيم عنه: "عَلِمَ الله ما رأيت أحداً أطيبَ عيشاً منه قط، مع كل ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرُّهم نفساً، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينةً، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها". ويقول ابن المبارك: "نحن في لذة لو يعلم الملوك وأبناء الملوك عنها لقاتلونا عليها بالسيوف".

الناس والسعادة

الإنسان مدنيٌ بطبعه، قال ابن خلدون في مقدمته: "الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لابدَّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم". فالإنسان محتاج للناس، مضطر لوالديه، وزوجه، وأهله، وعشيرته وقومه، ومحتاج للآخرين لتحصيل احتياجاته، وتحقيق مصالحه، لصلاح عيشه، في طعامه وملبسه، ومسكنه ومركبه، ونحوها من الاحتياجات.

وهو كذلك محتاج للناس في علومه ومعارفه، وفي أنسه وبهجته، وترويحه وسعادته. والإنسان يحقق هذه الحاجة، ويلبي هذا الطبع في مخالطته للناس، ومجالستهم، ومحادثتهم، ومعاملتهم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. وقد قيل: لا تعتبر السعادة سعادةً إلا إذا اشترك فيها أكثر من شخص، ولا يعتبر الألم ألماً إلا إذا تحمله شخص واحد.

ومن شذ وخالف هذا الطبع الإنساني، فاعتزل الناس، وتباعد عنهم، فهو مضاد لطبعه، مخالف لفطرته. وهذه المضادة للطبع تقتضي

منه مجاهدة نفسه، وترويضها لتقبل هذا التغيير، وتسييرها بخلاف سير طبيعتها، وربما تحقق له مبتغاه، فأنس بوحشته، وسعد بخلوته.

والذي يدفع بعض الناس لهذا المسلك، واعتزال الناس، تجاربٌ مريرة عاشها معهم، وأحداث أليمة تسببوا بها له، أحبهم وأبغضوه، نصرهم وخذلوه، ائتمنهم وخانوه، أكرمهم وأهانوه، أعطاهم ومنعوه، نصحهم وغشوه.

وربما اعتزل آخرون لشدة أنسهم، وحبهم، وتعلقهم بشيء غير الناس، شيء ملأ حياتهم، ولبى احتياجاتهم، ووجدوا في انقطاعهم معه سعادتهم، وفي كل قاطع عنه وحشتهم. وغالب هذا الصنف هم المتعبدون المتألهون، الذين شُغلوا بعبادة آلهتهم، وأنسوا بها، وانقطعوا لها. وبعضٌ منهم شغفوا بالطبيعة والحيوان، فانقطع في البر مع إبله، وفي البحر مع صيده، وفي الجبل مع غنمه، فهذا الشنفرى يقول عن صحبه، ذئب ونمر وضبع، في لاميته:

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ
وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وَ أَرقَطُ زُهلولٌ وَ عَرفاءُ جَيأَلُ
هُمُ الرَهطُ لا مُستَودَعُ السِرَّ ذائِعٌ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ

ويذهب جمهور أهل العلم إلى تفضيل مخالطة الناس على اعتزالهم، قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن الذي يخالط الناس

ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم) [صحيح[1]]. **فلا رهبانية في دين الإسلام، قال الله تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)** [الحديد:٢٧]، **فذمَّ أهلَ الكتاب لابتداعهم هذه الرهبانية التي فرضوها على أنفسهم، ثم ذمهم في عدم التزامهم ما التزموه من هذه الزيادة في العبادة.**

فالذي فعلوه يشبه فعل من نذر طاعة لله تعالى، فوجب عليه بهذا النذر هذه الطاعة، وهو مثابٌ إن وفى بنذره، قال تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) [الإنسان:٧]. **لكنِ الأصلُ أنَّ ابتداءه هذا النذر مذموم، لما فيه من التشديد على النفس، وتعريضها لنقض ما التزمته، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تنذروا، فإن النذر لا يرد عن القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل)** [صحيح[2]].

وهذا الحكم بتفضيل المخالطة يصير مرجوحاً، فتصبح العزلة هي المفضلة المقدمة، وذلك في أحوال خاصة، مثل خشية الفتنة على الدين عند مخالطة الناس لفشو الفواحش والكفر والجهل، قال

---

[1] الراوي: عبدالله بن عمر، المحدث: أحمد شاكر، المصدر: مسند أحمد، الصفحة أو الرقم: ٩٤/٧، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

[2] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: تخريج كتاب السنة، الصفحة أو الرقم: ٣١٣، خلاصة حكم المحدث: صحيح

الإمام النووي رحمه الله: "باب استحباب العزلة عند فساد الزمان، أو الخوف من فتنة في الدين، أو وقوع في حرام وشبهات". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن) [صحيح[1]].

أو تكون عزلته بسب خشيته أذيته وظلمه للناس بسبب سوء خُلُقه وحدة طباعه، ففي الصحيحين: قال رجل: (أيُّ الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسه وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شِعْبٍ من الشعاب يعبد ربه - وفي رواية - يتقي الله ويدع الناس من شره).

فإذا كانت مخالطة الناس من الدين، وفيها الأجر والثواب، ثمَّ فيها موافقةُ الطبع، وتحقيقُ المصالح، وإشباعُ حاجة النفس، والبهجة والأنس. وكان من طبيعة هذه المخالطة المطلوبة، أن تصاحبها مكدراتٌ ومنغصات. فالمخالط للناس سيناله منهم الأذى، أذىً مقصودٌ، فالحاسد والظالم يؤذي ويضر، وأذىً غيرُ مقصود، فالقريب والحبيب يخطئ ويؤلم، وأذىً هو ردٌ لأذى، فالمظلوم والمهضوم ينتصف ويرد.

---

[1] الراوي: أبو سعيد الخدري، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٨١٨٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح

فمخالطة الناس يجتمع فيها لكل واحد منا، الأنس والوحشة، والنصيحة والغش، والحب والبغض، والوصل والجفاء، والإحسان والإساءة، والإيثار والحسد، والأجر والإثم، والسعادة والشقاء، وكثير من المتناقضات. فكيف السبيل لنحقق أقصى إيجابيات المخالطة وفوائدها، وأن نفهم ونعالج ما حوته من سلبيات، لتخفيف ضررها، بل ورؤية مواضع الخير والمنفعة والمصلحة فيها.

هذه ثلاث حقائق عن الناس ومخالطتهم، سميتها حقائق لأن دليلها من القرآن الكريم والسنة الصحيحة. حقائقٌ لابد من ضمِّها ببعض، لتحقيق الفهم الصحيح للناس، فهمٌ لابد أن يصاحبه مجاهدةُ النفس لرؤية واستحضار ومعايشة هذا الفهم دوماً، والتطبع بالطباع التي تعين على تطبيقه. فإذا وُفِّقَ الإنسانُ لتحقيق هذا الفهم واستحضاره وتطبيقه في معاملته للناس، فسيجد بإذن الله تعالى الرضا، ليس بالضرورة عن الناس، ولكن عن المصالح التي يحققها لنفسه في تعامله مع الناس، وصبره عليهم، وخصوصاً مصالح الآخرة، بل وربما تعدى الرضا للسعادة بهم ومعهم.

الحقيقة الأولى: أنَّ الناسَ كثيرٌ منهم فيه جهل وظلم، وهم متفاوتون في درجة ذلك، فمنهم من يسفك دمك دون سبب، ومنهم من يسرق مالك، ومنهم مَن يسبك ويشتمك. وهذا الظلم والجهل منهم أسبابه متنوعة مختلفة، منه ما سببه اعتقادٌ باطل، ومنه ما سببه

ظن سيء، ومنه ما سببه أنانية وحسد، ومنه سببه شفقة وحب بحمق، وقد قيل شعرا:

رام نفعا فضر من غير قصد و من البر ما يكون عقوقا
وكم من محب أراد نفعا فأضر وكم من عدوٍ أراد ضرا فنفع

وأسباب متنوعة أخرى. ودليل ذلك من القرآن الكريم، قول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [البقرة:٢٤٣]، وقوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [الروم:٣٠]، وقوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الرعد:١]، وقوله: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) [الأنعام:١١٦]. ومن السنة الصحيحة قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الناس كالإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة)[1]. وقيل شعرا:

بمن يثق الانسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاب على أجسادهن ثياب

وقال الألبيري:

فخف أبناء جنسك واخش منهم كما تخشى الضراغم والسبنتا
و خالطهم و زايلهم حِذارا و كن كالسامري إذا لُمستا

[1] الراوي: عبدالله بن عمر، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٦٤٩٨

وقال المتنبي:

وَصِرْتُ أشُكُّ فيمَنْ أصْطَفيهِ لعِلْمي أنّهُ بَعْضُ الأنَامِ

قال رجلٌ للحسن البصري - رحمه الله - إن قوماً يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلا، فقال: هون عليك، فإني أطمعت نفسي بالجنة فطمعت، وأطمعتها بالنجاة من النار فطمعت، وأطمعتها بالسلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلا، إن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم.

هذه المعرفة بحقيقة الناس، تخفف عليك حدة الوجد والغضب من إساءتهم وجهلهم عليك. هذه معرفةٌ لابد أن يصاحبها الحذرُ من التمادي بتحميل الناس كل الأخطاء، وتبرئة النفس وتزكيتها من كل خطأ وتقصير ونقص، بل تذكر أنك واحد من هؤلاء الناس، الذين يخطئون ويجهلون.

الحقيقة الثانية: أنَّ الناسَ فيهم خيارٌ، فمنهم صالحون، ومنهم كريم وحليم، وفيهم فضل ورحمة وخير. والله تعالى كرَّمَ بني آدم، واصطفى منهم رسلاً وأنبياء، وصديقين وصالحين وشهداء، منهم من بذل نفسه وحياته لمصلحة الآخرين، ومنهم من بذل ماله وجاهه، ومنهم من بذل وقته وعمره، ومنهم من يألم للمتألمين، ويبكي لمآسي الآخرين.

فمن الناس من بذل حياته لنصح الناس ونفعهم وهدايتهم لما فيه سعادتهم في آخرتهم، بعلمه ودعوته. ومن الناس من بذل عمره لسعادة الناس في دنياهم، بمخترعاته واكتشافاته. ومن الناس من يبيت جائعاً ليشبع جاره، ومن الناس من تحسبه غنياً من تعففه، ومن الناس من يموت لأجل دينه، ولأجل وطنه، ولأجل عرضه وشرفه، ومن الناس بليغ فصيح أديب، ومنهم حليم، ومنهم شجاع.

مُرَّ بجنازة، فأُثني عليها خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وجبت. ومُرَّ بجنازة أخرى، فأُثني عليها شراً، فقال النبي: وجبت. فقال عمر: فداك أبي وأمي، مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيراً فقلت: وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثنى عليها شراً، فقلت: وجبت. فقال: من أثنيتم عليه خيراً، وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً، وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض) [صحيح[1]]**. وفي هذا دليل على منزلة أهل الإسلام عند الله تعالى.**

ورسول الله صلى الله عليه وسلم، بشرٌ من الناس، وصفه ربه فقال عنه: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:٤]**، وهو خير الناس، بل وخير الخلق، قالت عنه زوجه خديجة رضي الله عنها حين أتاها وجلاً أول ما نزل عليه جبريل عليه السلام: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا،**

[1] الراوي: أنس بن مالك، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح النسائي، الصفحة أو الرقم: ١٩٣١، خلاصة حكم المحدث: صحيح

إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وصحابته الكرام، دين وعلم وخُلق وعدل وبذل وجهاد، أبو بكر الصديق، الصاحب القريب، عقل وإيمان ما شك أبدا ولا ارتاب، وعمر بن الخطاب عدل وحزم ويفر منه الشيطان، وعثمان بن عفان رحمة وإحسان وتستحي منه ملائكة الرحمان، وعلي بن أبي طالب علم وقوة ويحبه اللهُ ورسولُه. وبقية العشرة، وأهل بدر، وأهل الشجرة، وبقية الصحب الكرام البررة.

ومن الناس أهلُ مروءة وخُلُقٍ وفضلٍ، فهذا اليهودي السمؤال ذُبح ابنه أمام حصنه ثمناً لوفائه بعهده، ومن جميل شعره:

إِذا المَرءُ لَم يدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ
وَإِن هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها فَلَيسَ إِلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ

وحاتم طيء، كريم يحب مكارم الأخلاق، وكان من حبِّه للجود والبذل ما يفصح عنه قوله لغلامه:

أوقد فإن الليل ليلٌ قِر و الريح يا واقد ريحٌ صِر
علَّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وقال دريد بن الصمة عن بذله نفسه لأخيه:

فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت وحتى علاني حالك اللون أسود

طعان امرئ آسى أخاه بنفسه و يعلم أن المرء غير مخلد

وقال أعشى باهلة:

من ليس في خيره من يكدره على الصديق ولا في صفوه كدر
وليس فيه إذا استنظرته عجل و ليس فيه إذا ياسرته عسر

وقال كعب الغنوي:

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب
هو العسل الماذي حلماً ونائلاً وليث إذا يلقى العدو غضوب
أخو شتوات يعلم القومُ أنَّهُ سيكثر ما في قدره ويطيب
حبيبٌ إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شب وهو أديب
إذا ما تراءته الرجال تحفظوا فلم تنطق العوراء و هو قريب

وهذا توماس أديسون، حبُّهُ لأمه حركه للاختراع، يقول عنها: لقد اكتشفت مبكراً في حياتي أن الأمَّ هي أطيب كائن على الإطلاق، لقد دافعت أمي عني بقوه عندما وصفني أستاذي بالفاسد، وفي تلك اللحظة عزمت أن أكون جديراً بثقتها. وكان يقول: ليس المال إلا وسيلة لا غاية.

فالناس فيهم الخبيث الشرير، وفيهم الطيب الخير، وفيهم من فيه خير وشر، قال الله تعالى (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً

صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [التوبة:١٠٢].

والذي يرى جانب الخير في الناس، وينتفع به، ويعرف جانب السوء، فيحذره ويتجاوز عنه، تطيب له الزوجة، ويحلو الصديق. وقد قيل لو تعرفت على أسباب الشر والزلل عند كثير من الناس، لتفهمت وعذرت كثيراً منهم. قال تعالى: (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء:١٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن سخط منها خلقاً، رَضِيَ منها غيرَه) [صحيح[١]].

الحقيقة الثالثة: أن الله تعالى جعل لحسن معاملة الناس، وبذل المعروف لهم، أجراً عظيماً وثواباً كبيراً، وأمر بذلك، وزينه ودعا إليه. قال الله تعالى: (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران:١٣٣-١٣٤]، وقال تعالى: (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً) [البقرة:٨٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء يوضع في

[١] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: غاية المرام، الصفحة أو الرقم: ٢٤٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح

الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة) [صحيح[1]].

وإساءة الناس لك بغير حق، فيها زيادة لأجرك، وتكفير عن سيئتك، قال صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه. ثم طرح في النار) [صحيح[2]].

فإذا وفِّقَ الإنسان لرؤية حظه من حسن خلقه مع الناس، وحظه من بذله وعطاءه لهم، وحظه من وصله وبره بهم، وحظه من صبره وحلمه عليهم، وحظه من ظلمهم وإساءتهم له. فهذا العلم، وهذه الرؤية والمشاهدة، لهذا الحظ والأجر والثواب، سبب عظيم لتحقق سعادته مع الناس. فهو محصلٌ لا محالة لأجره من الله تعالى، دون ترقب لمكافئة الناس له، ودون حساب ونظر لاستحقاقهم لإحسانه لهم. وقد قيل شعرا:

---

[1] الراوي: أبو الدرداء، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٥٧٢٦، خلاصة حكم المحدث: صحيح

[2] الراوي: أبو هريرة، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٥٨١.

فقل ما شئت فيَّ فلي لسانٌ مليءٌ بالثناء عليك رطب
فقابلني بإنصاف وظلم تجدني في الجميع كما تحب

ومن لم يوفق لذلك فكثيراً ما سيقول، يا خسارة معروفي لفلان، ويا ضياع إحساني لعلان، ونحوها من العبارات التي تحمل الحسرة والندامة على ضياع جزاء عملٍ فارقته النية الصالحة، وكان ثوابه مرجواً من هذا وذا، ممن لا يعرف لصاحب الحق حقاً، ولا لصاحب المعروف فضلاً، ولا لصاحب الإحسان جزاءً.

وكظم الغيظ، والعفو والتسامح مع الناس، خلقٌ حسنٌ جميل، وفيه أجرٌ وثواب، ولكن في مواضعٍ يكون فيها الغضب المنضبط بالشرع والأدب أفضل وأولى. ومن أولى هذه المواضع الغضب لأجل الدين، لأجل الانتصار للحق، لأجل دفع الكفر والظلم، لإنكار المنكر وإزالته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه لا ينتقم ويغضب لأجل حظ نفسه، كما أخبرت بذلك عائشة رضي الله عنها، قالت: (وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله) [صحيح[1]].

ومنها إذا كان العفو يؤدي إلى تمادي المعتدي في الشر والظلم، ومنها إذا كان العفو يؤدي حتماً إلى انتقاص المرء والجرأة عليه،

[1] الراوي: عائشة، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٦١٢٦.

ومنها إذا كان العفو سببه الضعف والجبن. وقد أذن الله تعالى للمظلوم أن ينتصر لنفسه، وأن يعتدي على المعتدي بمثل اعتدائه، قال الله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) [الشورى:٤٠-٤١].

العمل الصالح لسعادة الدنيا

هل من الإثم والخطأ أن يطلب الإنسان المؤمن السعادة الدنيوية بالعمل الصالح الخالص لله؟

ربما ظنَّ البعض أن هذا الطلب الدنيوي بالأعمال الصالحة هو خطأ وإثم من فاعله. فالعمل الصالح لا يطلب منه إلا الثواب في الآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار، وربما استدلوا بقول الله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ) [هود:١٥]، وبتفسير ابن عباس رضي الله عنهما لها بقوله: "العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله، من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب"[١].

وهذا الاستدلال بالآية، وهذا الفهم لتفسير ابن عباس لها، غير دقيق ولا صحيح. وبالجمع بين الآيات ذات العلاقة بالمسألة

[١] تفسير الطبري

والتوفيق بينها، نصل بإذن الله تعالى لفهم أشمل وأدق. فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) [هود:٥٢]، فهذا نوحٌ عليه السلام يأمر قومه بالتوبة والاستغفار لتحصيل حظ دنيوي، نزول المطر وزيادة القوة. وقال تعالى حاكياً دعاء وطلب نبيه سليمان عليه السلام: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) [ص:٣٥]، وكذلك المؤمنون يدعون ربهم حظاً من الدنيا، ويتوسلون لذلك المطلوب بدعائهم، والدعاء عبادة، بل هو أسُّ العبادة. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه) [صحيح[1]] دلالةٌ للناس، لمن أحب منهم هذا الأجر الدنيوي من زيادة الرزق وطول العمر، بعمل هذا العمل الصالح.

والنصوص من الكتاب والسنة الصحيحة لا تتعارض أبداً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فلا اختلاف ولا تضاد بين النصوص، والجمع بينهم ظاهر لمن تفكر وتأمل، وسأل وتعلم. فالذم متوجه لمن خالط عمله الرياء، فأراد من الناس المصالح الدنيوية، من مال وثناء وجاه ونحوها، وجعل عمله الصالح وسيلة

[1] الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٥٩٨٦.

لتحقيق ذلك. كمن طلب العلم ليُقال هو عالم، ومن جاهد ليُقال هو مجاهد، ومن أنفق ليُقال هو كريم. ففرق بين من عمل الصالحات لله، يطلب من الله وحده الذكر الحسن الطيب في الدنيا، ومن عمل الصالحات للناس، يرجو منهم الثناء والمدح، فالذم سببه الشرك في العمل. قال تعالى حاكياً قول إبراهيم الخليل: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)[الشعراء:٨٤].

والذم أيضا متوجه لمن لم يُرِدْ من عمله الصالح الخالص إلا حظوظ الدنيا، ولا همَّ له ولا طلبَ لثواب الآخرة، للفوز بالجنة والنجاة من النار، وهو المقصود بكلام ابن عباس رضي الله عنهما، ففعله هذا مؤشرٌ على ضعف إيمانه ويقينه، فلو خُيِّرَ رجلٌ لأجر عملٍ أداه بين دينارٍ يحصله نقداً ويفقده سريعاً، وبين الملايين مؤخرةً شيئاً قليلاً، وتبقى معه دائماً أبداً، فاختار الدينارَ لأتهم في عقله، أو في شكِّهِ وعدم تصديقه للعطاء الكثير المؤخر. فالذم سببه ضعف اليقين بالوعد وضعف الإيمان به.

والذم أيضا متوجهٌ لمن تعلق قلبه بهذا النصيب الدنيوي الذي يطلبه بعمله الصالح الخالص، وظنه حقاً واجباً له، وحصولُه وتحققه حتمٌ مؤكدٌ. فإذا استغفر وجب له المطرُ والمال والبنون، وإذا وصل رحمه استحق زيادةَ الرزق وطول العمر. فإن تأخر أو امتنع حصول مطلوبه الدنيوي تذمر واشتكى، وارتاب وشك. ولم يتهم نفسه،

ويتفقد عمله، في صحته وإخلاصه. ولم يتفكر في مطلوبه، من المال وطول العمر، فلعله شرٌ ووبالٌ عليه، علمه الله تعالى فوقاه الله منه، قال الله تعالى: (وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [البقرة:٢١٦]**. فالذم سببه جهله بنفسه، وبعلم وحكمة ربه.**

العمل والسعادة

شُبِّهت الوظيفةُ بالعبودية، عبوديةُ المُوَظَفِ للموظِّفِ[1]، فعامة الناس الوظيفة هي وسيلة كسبهم للمال، المال الذي به يأكلون ويلبسون، ويركبون ويسكنون، ويتزوجون وينفقون، والذي يبذلونه في ضرورياتهم واحتياجاتهم، ورفاهيتهم وتمتعهم. وهذه الوظيفة في الغالب أنها تكون في مؤسسة حكومية أو أهلية تجارية، يقضي فيها الموظف صفوةَ عمره، وثُلُثَ يومِهِ وربما أكثر، وثلثه كثير.

وكلُّ إنسان وهو في وظيفته له أعمالٌ ومهمات، وطموحات وتطلعات، ومنافسات ومسابقات، وعلاقات واتصالات، وفوقه مدير ورئيس، ومعه صاحب وزميل، وربما تحته تابع ومرؤوس. وكل ذلك له تأثير بالغٌ على سعادته وفرحه، وسكونه واطمئنانه، هل هو محب لعمله مستمتع به؟ وهل يحقق فيه ما يؤمله ويرجوه؟ وهل يأنس بمن يخالطه فيه ويسعد به؟ وهل يُحصِّلُ منه ما يستحقه من الأجر المادي والتقدير المعنوي؟ وهل نفسه راضية مطمئنة بقيمة عمله، وحِلِّ ماله وكسبه؟

[1] أخبر الله تعالى أن من الناس عبدٌ لهواه، (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [الفرقان:٤٣]، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن من الناس عبد للدرهم والدينار، وعبد للقطيفة.

واقعُ الحالِ أن الكثيرَ من الناس لا يعمل العمل الذي يحبه، ولا الذي يحقق له أمانيه، ولا الذي معه فيه من يرتضيه. فالضرورةُ للمال تدفعه للتنازل عن كل ذلك، وقبولِ أيِّ عمل يحصل منه المال الذي يعينه على تكاليف حياته، ومعيشة أهله وولده، ومن يعوله من قريب وحبيب. بل وتدفعه هذه الحاجةُ للصبر على حاسدٍ يحسده، ولومٍ لا يستحقه، وظلمٍ يصيبه، وملاطفةٍ لمن لا يلاطفه، ومصانعةٍ لمن لا يطيقه.

منغصاتٌ ومكدرات في العمل، ومن الوظيفة، يعيشها الموظف والعامل، تؤثر سلباً على سعادته مع نفسه، وفي بيته مع عائلته، وفي مجتمعه وبين أصحابه. يخرج من عمله تعباً مبخوساً، ويبقى بقية يومه نَغِصاً تعيساً. فكيف يمكن تجاوزُ هذه السلبيات، والخلاصُ من النكد والضيق، بل وتحقيق ضدها من الاستمتاع بالعمل والنجاح فيه.

أول ما يحقق ذلك مجاهدة النفس لتصحيح النية في العمل، بأن تكون النيَّةُ صالحةً في عمله، فالعمل في نفسه عمل صالح شريف، والكسب منه طيب حلال، يؤديه على أتم وجه بالتمام، دون تضييع وتفريط، ونقص وتقصير. ويرتقي بنيته في عمله من مصلحة نفسه وأهله، إلى مصلحة المجتمع والناس، فالطبيب لعلاج المريض،

والمهندس لسلامة المدينة والطريق، والجندي لأمن البلاد، وأولاهم بذلك العالم والشيخ لصلاح الدين وهداية الناس.

وبعدَ تصحيح النية لتكون لله تعالى، يصحح نيته لنفسه من عمله، فنفسُه أحقُّ وأولى بالرعاية من الناس، أن يحقق الرضا النفسي عن نفسه بعمله، بإتقانه له، وإبداعِه فيه، ونتائجه وإنجازاته. أن يفرح ويفخر العالمُ بعلمه وتعليمه، والمدرس بتربيته وتدريسه، والمهندس بتخطيطه وتصميمه، والطبيب بعلاجه ودوائه، والبَنَّاء ببنائه وتشييده، والمدير بإدارته وتصريفه، والعامل بتنظيفه وتجميله، وكلٌ بكل عملٍ شريفٍ يعمله. ففرحه بنفسه في عمله يجب أن يغلب غمطَ الناسِ وظلمَهم له.

ثم يكون صلاحُها مع مديره ورئيسه، وكذلك مع تابعه ومرؤوسه، فيُحسن بمديره الظن، ويحترم ويطيع، دون تجاوزٍ لحق الله تعالى، ودون ظلمٍ لحق نفسه، وأن ينصح لمرؤوسه، ويعمل معه، ويساهم في نجاحه وإنجازه، فلا يظلمه ولا ينتقصه، ولا يكلفه ما لا يطيقه، ويعينه لتحقيق تطوره وتقدمه. فهذه النية الطيبة مع الرئيس ومع المرؤوس ستعينه وتوصله لما يستحقه من التقدير والعلاوات والمسئوليات.

فإن تحقق له ذلك منهم كان خيراً على خير، وإن لم يتحقق كفته نيته الصالحة مع الله، ونيته لذاته ونفسه، لتحقيق الرضا والسعادة

في العمل، والاستمرار في تحقيق الإنجازات والمصالح، وإعانته على الصبر وتحمل الظلم والجحود من الآخرين.

والأمر الثاني الضروري لتحقيق الرضا في العمل هو تصحيح السلوك فيه، وقد يحقق ذلك من أعطى نفسه الوقت لتأملٍ وتحليل ودراسة حاله في عمله، في علاقاته مع مرؤوسيه وزملائه ورؤسائه، كيف يرتقي بها ويصلحها، وكيف يعالج قصورها ونقصها. أن يتفحص أقواله وأفعاله ونياته معهم، فيقومها ويصلحها، أن يتعرف لمواضع النقص فيهم، ليُحْسِن التعامل معها، ويعالج ما يمكن معالجته منها، ويتعايش مع ما يمكن التعايش معه منها. أن يصل إلى التوسط في تعامله مع مرؤوسيه بين التسامح والمحاسبة، وبين التغاضي والتدقيق، وبين اللين والشدة. ومع رؤسائه بين الاحترام والتملق، وبين الانقياد والمعاندة، وبين الخضوع والمخالفة.

ولتحقيق السعادة في العمل ومن العمل، لابد للموظف أن يراجع ويصحح اختياره لعمله، نوعه ومحله وبيئته، وذلك باختيار العمل المناسب لشخصيته وطباعه، والعمل الذي يحبه ويستمتع به، والعمل الذي تتوفر فيه الظروف والأجواء المناسبة للإبداع والإنجاز.

وأن تكون له الجرأة في المطالبة بتصحيح ما يعوق بينه وبين تحقيق رضاه وسعادته في عمله، والجرأة على تغيير نوع عمله إذا لم يجد

فيه ما توقَّعَهُ وتمناه، أو تغيير محل عمله إذا لم يتحقق له فيه الجو المناسب للعمل والإبداع، وما يستحقه من المسئوليات والمهام والعلاوات.

يفعل ذلك دون تعجل وتهور، لكي لا يقع في البطالة، أو في محل هو أسوأ من محله. ودون مبالغة في الخوف من التغيير، يديم معاناته، ويعوق دون تحقيقه لطموحاته وآماله، وتقدمه وتطوره.

أعرف صاحباً كان أفضل قرار اتخذه في عمله، هو تقديم استقالته منه. وقد كان في إدارته مقصياً من قبل مديره، مع كفاءته وتميزه، ولما قدم استقالته عُرض عليه الانتقال لإدارة أخرى، فقبل نقله، ووجد في إدارته الجديدة التشجيع والقبول، والمتعة بالعمل والإنجاز، فحقق فيها الكثير من النجاح، حتى أُعيد لإدارته القديمة بعد عشر سنين من خروجه منها مديراً لها.

وأعرف اثنين من المتميزين الأكفاء، لم يكن لهم في عملهم فرصة للتقدم الوظيفي، ولا المشاركة في ما يحبونه من المشاريع والأعمال. فاستقالا وانتقل كل منهم لعملٍ وجد فيه ما يتمناه من الفرصة لإثبات التفوق والتميز، وأصبح اليوم كلٌ منهما مديراً ومسئولاً مهماً في عمله الجديد.

وأعرف آخر كان متميزاً في عمله، مخلصاً جداً فيه، مبالغاً في تعلقه به، وبذله له، ولمَّا لم ينل ما يستحقه في تقديره من مديره، انسحب من كل مسئولياته، واعتزل ما أبدع فيه وأحبه، وأصبح خلواً من المهام والتحديات، التي يعشقها ويبدع فيها، موظفاً يوقع للقدوم والانصراف. وأعرف رجلاً فاضلاً كريماً، زرته في مرض موته، رحمه الله، فكان من ما قال بحسرة وتوجع، قهرني الرجال في عملي فأمرضوني. وأعرف من تعجل باستقالته من عمله، ثم عاد يطلب من مديره إعادته لوظيفته التي قد حلَّ فيها غيره، فرضي بوظيفة دون وظيفته التي ترك.

الذكر والسعادة

الذكر للشيء، هو حضوره الذهني، وهو ضد الغفلة عن الشيء ونسيانه، قال تعالى حاكياً قول يوشع بن نون - فتى[1] موسى عليهما السلام: (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) [الكهف:٦٣]، **فالذاكرُ للشيءِ هو مستحضرٌ له في ذهنِهِ مستشعرٌ به.**

والأصل في الذكر أنه في القلب، فيصح الذكر للشيء دون نطق ولا فعل، ولا يصح ذكرٌ بقول أو فعل إذا لم يصاحبه ذكرٌ بالقلب. فالصلاة وهي عبادة يجتمع فيها ذكر بالقلب وذكر بالقول وذكر بالفعل، والنيةُ ومحلها القلب، ركنٌ من أركان الصلاة، فمن لم ينوي فلا صلاة له، وإن قرأ وسجد.

وقد عاب الله على المنافقين صلاتهم، فهم الظاهر منهم حسن، والباطن منهم خبيث، وباطن الصلاة هو حضور القلب وتذكره لله تعالى، وهو عندهم ناقص ضعيف قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً) [النساء:١٤٢]. **فقوله يراؤون الناس، أي يزينون ظاهر صلاتهم، قولَهم وفعلهم فيها، ولم يجعلهم**

[1] قيل هو يوشع بن نون، صار نبياً لبني إسرائيل بعد موسى، وهو الذي دخل بقومه بيت المقدس بعد انقضاء التيه، وهو الذي حُبست له الشمس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)

هذا التكميل والتزيين للظاهر ذاكرين لله تعالى فيها، بسبب ضعف وفساد ذكر القلب.

ذكرُ الإنسانِ لشيءٍ يصحبه طمأنينةٌ وفرح وأنس، وذكرهُ لشيءٍ آخر يصحبه خوفٌ وحزن وضيق، فإذا ذكرت مَن تُحب من أهلٍ وولد، أو أياماً سعيدة، أو أماكنَ جميلة، أو أفكاراً ممتعة، أو أمنيات طيبة تتوقع تحققها، كل ذلك سبب للأنس والسعادة. ونقيض ذلك ذكرك لبغيض وعدو، وأيام تعيسة، وأماكن كريهة، وأفكار قبيحة، وأمنيات جميلة متعذر تحققها، سببٌ للهم والقلق والحزن.

وعلى قدر محبة الشيء يكون مقدارُ الفرح والأنس بذكره، وكلما زادت المحبة له زادت السعادة به. وعلى قدر كمال الشيء المحبوب، يكون كمال السعادة والأنس للمحب من حبيبه. يقول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ) [البقرة:١٦٥]، فالذين أحبوا الأنداد، أحبوا شيئاً ناقصاً، ربما وجدوا فيه أنسهم وسعادتهم، ولكنه أنسٌ وهمي، وسعادةٌ ناقصة مبتورة، ستعود عليهم حسرةً وندامةً، وهماً وعذاباً. وأما الذين آمنوا بالله، فلكمال محبوبهم، كانت محبتهم لإلههم وسعادتهم بذكره أشدَّ وأكمل وأتم، من محبة المشركين لآلهتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فالله تعالى له الكمال المطلق، في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، في رحمته بك، وفي قدرته عليك، وفي عدله معك، وفي علمه وقربه منك. فمن حقق المحبة لله تعالى، كان ذكره لمحبوبه طمأنينةً له، وسعادةً وسروراً، يقول الله تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد:٢٨]، فذكره تعالى فيه الطمأنينة للقلب، أمنٌ من الخوف على فوات الدنيا، بسبب فقر أو مرض أو عدو ونحوها.

والخوف عند ذكره، الذي ذكره الله تعالى في وصفه لعباده المؤمنين: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [الحج:٣٥]، خوف نافع مفيد، يسوق العبدَ لسعادته الدائمة التامة، حتى وإنْ كدَّرَ هذا الخوفُ سعادةً آثمة باطلة، لو استرسل العبد فيها كانت سبباً لتعاسته وعذابه. خوفٌ يصاحبُه أنسٌ، وخوفٌ يصاحبُه أملٌ، وهو موصلٌ للسعادة التامة. قال الله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر:٢٣].

كل العبادات، النية شرط لصحتها، قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) [صحيح[1]]. **والنية محلها القلب، لذا صارت كلُّ العبادات قلبية، قلبية بحتة كالتوكل، وقلبية قولية كالتكبير، وقلبية فعلية كالطواف، وقلبية قولية فعلية كالصلاة. بل من فضل الله تعالى تصير بعض الأقوال والأفعال بالنية الصالحة عبادة، حتى إتيان الرجل أهله، كما صح بذلك الحديث. وكلُّ عبادةٍ هي ذكرٌ لله تعالى، وبقدر كمال باطنها وظاهرها يكون كمال السعادة بها، في الدنيا والآخرة.**

والقرآن الكريم، وهو كلام الله تعالى، الإيمان به عبادة، والعمل به عبادة، والتفكر فيه عبادة، وقراءته وكتابته وحفظه عبادة. وفيه رحمة وشفاء، وفيه أنس وطمأنينة، وهو خيرٌ مما يجمعه الناس من مال ودنيا. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصاب أحداً قط همٌ ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي،

[1] الراوي: عمر بن الخطاب، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ١

ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا[1]. قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها) [صحيح[2]].

فالقرآن هو الربيع للقلب، والنور للصدر، وبه ذهاب الهموم والأحزان، ونصيب العبد من ذلك بمقدار إيمانه وتعظيمه للقرآن، وعمله واستسلامه لأوامره ونواهيه. وهذا الدعاء هو سؤالٌ وطلبٌ من الله تعالى أنْ يملأ القلبَ محبةً وتعظيماً وطاعةً للقرآن، ومن أجابه الله وقبل منه، تحقق له بالقرآن الأنس والسعادة، وزوال الهموم والأحزان.

فيا طالب السعادة تعلق بالقرآن العظيم، وادع الله بهذا الدعاء، واعلم أنَّ من الناس من يقرأ القرآن ولا ينتفع به، بل يزيدهم بسبب أنفسهم الظالمة خساراً، قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء:٨٢]**. ومن صفة الخوارج أنهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وكذلك يكون أقوامٌ في آخر الزمان، قال صلى الله عليه وسلم: (يخرج في آخر الزمان قومٌ، أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقرأون القرآن لا يجاوز**

---

[1] وفي رواية: فرجا.

[2] الراوي: عبدالله بن مسعود، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: ١٩٩، خلاصة حكم المحدث: صحيح

تراقيهم، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) [حسن صحيح[1]].

[1] الراوي: عبدالله بن مسعود، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٢١٨٨، خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح.

القدر والسعادة

القلقُ والاكتئاب هما الضد والنقيض للطمأنينة والسعادة، فالقلق خوفٌ وحرصٌ وترقبٌ لما سيكون في الغد والمستقبل، يفسد طُمأنينةَ النفس وسكونها، والاكتئاب حسرةٌ وتوجعٌ وأسفٌ على ما فات ومضى من الأيام، يُذهب سعادة النفس وبهجتها.

والقلق والاكتئاب، باختلاف أنوعه ودرجاته، أمراضٌ زادت وكثرت في هذا العصر، وملأت حياة كثيرٍ من الناس تعاسةً وهماً وحزناً، وسلبتهم السعادة والطمأنينة والرضا. صاحبها في دوامة لا يدري كيف المخرج، ومتى الفرج، يصبح مهموماً قلقاً، ويمسي كئيباً حزيناً، ليس لشيء في دنياه طعم ولا لذة، ولا له مع أحدٍ أنسٌ ولا راحة. بين أهله وأحبابه بجسده ولسانه، وبعيد عنهم بفكره وقلبه، ومتى خلا بنفسه جاءته الوساوس من فوقه ومن تحته. قال الشنفرى في لامية العرب:

وإلْفُ هُمُومٍ ما تَزَالُ تَعُودُهُ عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبْعِ أو هِيَ أثْقَلُ
إذا وَرَدَتْ أصْدَرْتُها ثمّ إنّها تَثُوبُ فَتَأتي مِنْ تُحَيْتُ ومِنْ عَلُ

والعلم والمعرفة، والتصديق والإيمان، بالقدر خيره وشره، سببٌ عظيم للسلامة من القلق والاكتئاب المرضي، أما ما يعرض لسبب طارئ ثم يزول فنادرٌ من يسلم منه. والقدرُ ركنٌ من أركان الإيمان الستة، فلا يصح الإيمان إلا بتحقيق الإيمان بالقدر، قال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه) [صحيح[1]].

والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال الله تعالى: (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [التوبة:١٢٤]**، والمسلمون متفاوتون في درجات إيمانهم، منهم من يعبد الله كأنه يراه، ومنهم من إيمانه مثقال ذرة، ففي حديث الشفاعة يقول صلى الله عليه وسلم: (فأقول: رب ! أمتي أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ..)** [صحيح[2]]**، رحمةٌ من**

---

[1] الراوي: جابر بن عبدالله، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٩، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

[2] الراوي: أنس بن مالك، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ١٩٣. وتكملة الحديث (فأنطلق فأفعل. ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً. فيقال لي: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي أمتي. فيقال لي: فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل. ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد. ثم أخر له ساجدا. فيقال لي: يا محمد ! ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب !

الرحيم، وكرمٌ من الكريم. والناس يعطيهم الله نورهم يوم القيامة بقدر إيمانهم، ويجيزون الصراط بحسب قوة نورهم.

والإيمان الخاص بالقدر يصح فيه ما يصح في عموم الإيمان، فيتفاوت الناس في درجة إيمانهم ويقينهم بالقدر، منهم مطمئنٌ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما قُدِّرَ له من خيرٍ سينالـه، ومن شرٍ سيصيبه، ومنهم ضجِرٌ مما أصابه، وجِلٌ مما سيصيبه. وكلما زاد الإيمان بالقدر، كلما زاد العبد اطمئناناً وأُنساً.

القدر يسميه الناس المكتوب، يريدون ما كتبه الله على الإنسان من خير وشر. ويسمونه الحظ، يريدون النصيب الذي جعله الله للإنسان من الخير والشر. وهذه معاني صحيحة للقدر إلا أنها ناقصة غير مكتملة، وهذا النقص في تعريف وفهم القدر ربما أوقع الناس في إساءة الظن بالله تعالى، في عدله وحكمته، وفي قدرته وملكه، وفي حكمة التكليف وفائدة العمل.

لذا كان تعريف أهل العلم للقدر، تعريفٌ أخذوه من نصوص القرآن والسنة، فيه السلامة من الظنون الخاطئة، ومن الشبهات العارضة، وبه يتحقق الفهم والعلم التام الكامل الذي يوصل لقوة وزيادة الإيمان بالقدر.

أمتي أمتي. فيقال لي: انطلق، فمن كان في = = قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار. فأنطلق فأفعل).

فعرفوه أنه علم الله تعالى بكل شيء، ما كان وما سيكون، فكلُّ شيءٍ قد علمه الله تعالى، فلا يخفى عليه شيءٌ، لا صغيرٌ ولا كبيرٌ، لا ظاهرٌ ولا خفي، قال تعالى: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [سبأ:٣]، وقال: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [النمل:٧٥]، ومن ذلك العلم، علمه بعباده، وما سيعملون، ومَن منهم السعيد ومَن الشقي.

هذا العلم أمر الله تعالى القلم حين خلقه أن يكتبه، فكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، قال تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [الحج:٧٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)، قال الراوي عبادة بن الصامت رضي الله عنه: يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات على غير هذا فليس مني) [صحيح[1]].

وهذا العلم الذي كُتب في اللوح المحفوظ، مِن ما هو كائن إلى يوم القيامة، من أفعال وأقوال وأحداث وحركات وسكنات وكل شيء،

[1] الراوي: أبو حفصة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح أبي داود، الصفحة أو الرقم: ٤٧٠٠، خلاصة حكم المحدث: صحيح

كلها من خلق الله تعالى، فالله خلق الخلق، وخلق أفعالهم، وأرادها وشاءها، وهذا العلم يفيد كمال ملك الله تعالى، وقدرته وعزته، فلا يكون شيءٌ دون مشيئته، قال الله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:٩٦]. وهذا الخلق والمشيئة من الله تعالى لأفعال العباد، لا ينافي ولا يناقض أن للعبد مشيئةً واختيارا، فيختار الإيمان أو الكفر، ويختار الطاعة أو المعصية، هذا الاختيار هو محل الجزاء والعقاب، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) [الكهف:٢٩]، وقال تعالى: (لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) [التكوير:٢٨]، وقال: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد:١٠]. وردَّ اللهُ بنص صريح على من احتج بالقدر على معصيته، فقال تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ) [الأنعام:١٤٨].

هذا العلم والفهم للقدر يعين الإنسان على الصبر، ونفي وتخفيف الحسرة والندم على ما فات ومضى، قال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [الحديد:٢٢-٢٣]. ويعينه أيضا في

توكله، ونفي وتخفيف الخوف والقلق مما سيأتي ويقع، قال الله تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ) [التوبة:٥١].

ولكي يتمكن الإنسان من الوصول لهذه النظرة الصحيحة الإيجابية لأحداث الماضي، وأحداث المستقبل، لابد له من تحقيق الأمور التالية، الأولى: العلم أن المصيبة تصيبه هو سببها، قال الله تعالى: (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) [النساء:٧٩]. وقال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) [الشورى:٣٠].

الثانية: أن المصائب ليست شراً محضاً، بل فيها فوائد، منها التذكير والتخويف، والتكفير والتطهير، فالمصيبة التي قد مضت أو التي ربما أتت، عسى أن يكون معها التطهير والأجر، ويصاحبها نهايةُ الغفلة وبدءُ التوبة، قال تعالى: (فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء:١٩]. وفي صحيح البخاري (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه).

الثالثة: أن بعض المصائب، هي في الحقيقة لطفٌ خفيٌ من الله تعالى بعبده، عبدٌ لو أغناه الله لاستكبر وطغى، وعبدٌ لو قوَّاه الله لظلم وبغى، فكانت سعادةُ الأول أن يكون فقيراً في دنياه، وسعادة

الثاني أن يكون مريضاً. قال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) [الشورى:٢٧]**. وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله عبداً، حماه الدنيا، كما يَظَلُّ أحدكُم يحمي سقيمَهُ الماء)** [صحيح[١]]**.**

وفي ما حلَّ بالمنافق[٢] الذي سأل الله المال وعاهده على بذله في الخير والصدقة، فلما آتاه الله المال الكثير، بخِلَ به فصار ماله وبالاً ونقمةً عليه، قال تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) [التوبة:٧٥-٧٧]**. ولما خُسف بقارون أفاق الذين تمنوا مكانه وحمدوا الله على السلامة من فتنة المال (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)** [القصص:٨٢]**.**

---

[١] الراوي: قتادة بن النعمان، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٢٠٣٦، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

[٢] نسبت القصة للصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، وهو ممن شهد بدرا، نسبها له الطبري في تفسيره، والواحدي. والصحيح عدم صحة النسبة له، لعدم صحة الخبر وضعفه، وقد انكرها ابن حزم وابن حجر والبيهقي والقرطبي والذهبي والالباني وغيرهم. (من موقع أهل الحديث).

الرابعة: تعلق القلب بالله تعالى وحده، فهو الذي يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، إذا أصابك ضرٌ فلا كاشف له إلا الله، وإن يمسسك الله بخيرٍ فلا شيءٌ يرده عنك. قال الله تعالى: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يونس:١٠٧]، **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)** [صحيح[١]]. **فالقلب متوكلٌ على مالك الملك، من بيده الأمر والنهي، وهو يعمل بالأسباب، ولا يطمئن إلى الأسباب، ولا يكلف نفسَهُ ما لا تستطيعه وتقواه، فليس بيده فلاح الأولاد، وصحة الأحباب، وهداية الأصحاب، فالله هو العليم الخبير، اللطيف بالعباد، وهو أرحم به وبهم، من رحمة العبد لنفسه ولهم.**

[١] الراوي: عبدالله بن عباس، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٢٥١٦، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

إدارة السعادة

تقول موسوعة العلوم الاجتماعية: (الإدارة هي العملية التي يمكن بواسطتها تنفيذ غرض معين والإشراف عليه)، ويقول ليفنجستون[1]: (الإدارة هي الوظيفة التي عن طريقها يتم الوصول إلى الهدف بأفضل الطرق وأقلها تكلفة وفي الوقت المناسب وذلك باستخدام الإمكانيات المتاحة للمشروع)، وهناك تعريفات أخرى لها، لكنِ التعريفان السابقان هما الأقرب للإدارة المقصودة في هذا الفصل، إدارة الحياة لتحقيق السعادة.

والإدارة تكون للدولة، وللوزارة، وللشركة، وللبيت، وللأولاد، وللعلاقات، ونحوها. وإدارة المشاريع نوع من أنواع الإدارة يختص بإدارة المشروع، والمشروع هو كل مهمة مؤقتة، لها بداية ونهاية، ولها نتائجٌ وأهداف. فإدارة المشروع هي عملية التخطيط والتنفيذ والإشراف والمتابعة، للمهمة المطلوبة، لتحقيق الهدف والنتيجة المرجوة.

وأيُّ مشروع، مهما كان نوعُه، ونطاقُ عمله، ووقته وتكلفته، مثل مشروع بناء مدينة، أو تطوير نظام حاسوبي، أو زراعة أرض، أو إنشاء مصنع، أو بناء منزل، أو حفظ القرآن الكريم، وهو خيرُ

[1] من مشاهير علماء الإدارة.

مشروع، كلها تتفق أنها مهمةٌ بوقتٍ محددٍ، وعملٍ معين، ولها هدف ونتيجة. ونجاح المشروع مرتبطٌ بتحقيقه لهدفه ونتيجته، وفي الوقت المحدد، وبالتكلفة المالية المحددة إن وُجِدت للمشروع تكلفة.

فمشروع بناء منزل، مشروع مؤقت بوقت محدد، وفيه مهمة محددة، وعمل معين، وله هدف ونتيجة، هي المنزل المطلوب وفق المواصفات المحددة. وهذا المشروع يحقق صاحبه النجاح إذا بنى المنزل وفق المواصفات، وفي الوقت المحدد. فمنزل دون المواصفات فشل للمشروع، ومنزل بعد فوات الوقت فشل للمشروع. وهذا الفشل نسبي، بحسب مقدار النقص الحاصل، ومدى تأثيره على الهدف. فمنزل بغرفة واحدة بدل خمسة فشل كبير، ومنزل تريده قبل الأربعين، لم يتحقق إلا في الستين من العمر فشلٌ أيضا.

وإذا نظر الإنسان إلى حياته الدنيوية، كمشروع له بدايةٌ بتكليفه، وله نهايةٌ بموته، وهدفٌ ونتيجةٌ هي بلوغ الجنة وتحقيق السعادة التامة فيها. وللمشروع مهمةٌ ونطاق عمل، لابد من أدائه على الوجه المطلوب، لتحقيق الهدف. وهذه المهمة المطلوبة هي تحقيقُ العبادة لله تعالى وحده، قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:٥٦]، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وجمْعِ

الحسنات التي تثْقُلُ عند وزنها يوم القيامة في الميزان على السيئات، قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) [القارعة:٦-٩].

ونجاح هذا المشروع الأهم في حياة الإنسان مرتبطٌ بتحقيق الهدف المطلوب، وهو السعادة التامة الكاملة بدخول الجنة والنجاة من النار.

ولا يؤثر في نجاح المشروع الحالة التي كان عليها صاحب المشروع خلال تنفيذه للمهمة، هل استمتع أثناء تنفيذه لمشروعه؟ هل واجه مشقة وصعوبة فيه؟ هل كان سعيداً في مهمته؟ كل ذلك لا تأثير له في نجاح المشروع وفشله.

فصاحب مشروع المنزل نجاحه ببناء المنزل المطلوب، وكل تعب ومشقة، وهم وضيق، صاحبَ تنفيذه للمشروع يزول بالكلية، بل ربما أصبحت معاناته بعد تحقق هدفه ذكريات جميلة أنتجت هدفه الجميل الذي يتمناه. وكذلك صاحب مشروعِ الآخرة والفوز بالجنة، كلُّ همٍّ وتعب، وصبر وألم، عاناه في مهمته في الدنيا، يزول على وجهٍ أكمل وأتم حين تحقيقه لهدفه وفوزه برحمة ربه.

ومن استطاع أن يسعد ويتمتع بمشروعه، أثناء تنفيذه له، دون أن يسبب ذلك فوات الهدف المطلوب أو نقصه، فليسعد وليتمتع،

فهذا كسبٌ مضافٌ، يُطْلَبُ تحصيلُه، فالمؤمن في دعائه يقول: (ومِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [البقرة:٢٠١]، مع وجوب الحذر التام عند تحصيله لهذا الكسب الإضافي الفرعي من تفويت ونقصان الهدف الأصلي.

وهذا الحذر مطلوب لأن الزيادة والمبالغة في التمتع أثناء المشروع تؤدي حتماً إلى فوات الهدف أو نقصانه. ويؤيد هذا الحذر المطلوب، التحذيرُ من الدنيا والاغترار بها في كثير من الآيات الكريمات، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (حلاوة الدنيا مُرَّةُ الآخرة، ومُرة الدنيا حلاوة الآخرة) [صحيح[١]]، وقوله أيضا: (من أحب دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى) [صحيح[٢]]، وقوله: (إذا أحب الله عبداً حماه في الدنيا، كما يحمي أحدُكُم سقيمه الماء) [صحيح[٣]]. وقيل: الدنيا والآخرة ضرتان، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

فالمسلم المؤمن يدرك أن تحصيله لكل ما تتمناه نفسه من الشهوات واللذات، يتعارض مع تحقيق السعادة الأبدية في الآخرة.

---

[١] الراوي: أبو مالك الأشعري، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ٣٢٤٨، خلاصة حكم المحدث: صحيح.
[٢] الراوي: أبو موسى الأشعري، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ٣٢٤٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح لغيره.
[٣] الراوي: قتادة بن النعمان، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ٢٨٢، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

فبعضٌ من الشهوات واللذات لا تحصل إلا بالوقوع في الحرام، وكثيرٌ منها لا تُبلغ النهاية فيها إلا بالوقوع في الحرام. والوقوع في الحرام سبب لخاتمة السوء والخلود في النار، وفوات السعادة الأبدية، أو سبب لدخول النار ولو لحين، وغمسة واحدة فيها يرجح شقائُها على كلِّ نعيمٍ ولذةٍ تحققت في الدنيا من هذه الذنوب.

لذا كان الكيس الفطن الذكي، هو الذي يُحسن إدارة السعادة، فيحقق أقصى ما يمكن تحقيقه منها في الدنيا دون أن ينقص من حظوظ سعادته في الآخرة. ومن كانت همته للآخرة عالية، ورغبته في تحقيق أعلى النعيم في الجنة، ربما احتاج للزهد في سعادة الدنيا، وتفويت كثيرٍ من شهواتها ولذاتها المباحة، لانشغاله بالأعمال الصالحات، من صلاةٍ في ليلٍ، وصيامٍ في نهارٍ، وبذلِ مالٍ لفقيرٍ، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر، وجهادٍ بنفسٍ ومالٍ، وغيرها من المكاره التي تكرهها النفوس بالطبع.

والمسلم المفرط هو الذي يسيء إدارةَ سعادته في الدنيا، فيطلق لنفسه العنان لتحقيق كل شهواتها ولذاتها. فكلُّ ما تشتهيه نفسُهُ يسعى لتحقيقه وتحصيله في وقته، ولو على حساب سعادته في الآخرة. بل وعلى حساب سعادته في الدنيا، لأن تحقيقَها سببٌ لتأنيب ضميره وأسفه وخوفه وحزنه، سُئل أنو شروان: متى يكون

عيشُ المرءِ ألذ؟ قال: إذا كان الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولاً.

وكذلك لبعض هذه الشهوات أثرٌ سيئٌ على سُمعتِهِ ومكانتهِ عند أهله وقومه، ينعكس أثره على سعادته معهم في الدنيا. ولبعضها أثرٌ سيئٌ على صحته وقوته، يؤدي إلى تفويتٍ أو نقصٍ في سعادة الدنيا. وهي أيضا سببٌ للمصيبة والبلوى، قال الله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) [الشورى:٣٠]**، وقال صلى الله عليه وسلم: (وإن الرجلَ ليُحْرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه)**[1]**.**

وكذلك الكافر الدهري، الذي لا يؤمن ببعث ولا حساب، سوء إدارته لسعادته في الدنيا سبب لفوات كثير من سعادته وراحته فيها. فسعيه الحثيث، وحرصه الشديد لتحصيل كل شهوة ولذة في مقتبل عمره سبب في الغالب، لضياع ماله، وضعف قوته، وذهاب صحته، وهذا يؤول لتعاسته في كهولته وشيخوخته. والذي يزن أموره منهم، ويحرم نفسه بعض شهواتها ولذاتها الجسدية، استبقاء لبعض قوته لبقية مراحل عمره، يحقق قدراً أكبرَ من السعادة لها في حياته. وكذلك من يُلزِمُ نفسه بالمشاق والصعاب، يحقق قدراً أكبرَ من

---

[1] الراوي: ثوبان مولى رسول الله، المحدث: الألباني، المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم: ٢٨٦/١، خلاصة حكم المحدث: [فيه] ابن أبي الجعد، إن كان سالم فهو منقطع وإن كان عبد الله فهو مجهول.

الرضا بذاته ينعكس أثره على سعادته النفسية. وربما صحَّ أن أقولَ: أن حسنَ إدارة سعادة الدنيا ضرورةٌ للمؤمن، واختيارٌ للكافر الدهري.

الزواج والسعادة

الرجلُ محتاجٌ للمرأة، والمرأةُ محتاجةٌ للرجل، حاجةٌ فطريةٌ غريزيةٌ، حاجةٌ للروح وحاجةٌ للبدن، وهذه الحاجة بين الجنسين ذروة اكتمالها تكون بالزواج، هذه الرابطة التي تقرب بين الذكر والأنثى، وتجمع بينهما، قربٌ بدني جسدي، وقربٌ روحي نفسي، وقربٌ ذهني فكري. رابطةٌ تخلق التشارك في الأبناء والبنات، وفي الأفراح والأتراح، وفي الأماني والمخاوف، وفي التخطيط والتدبير.

هذه العلاقة تجعل الرجل صاحباً للمرأة، والمرأة صاحبةً للرجل، قال الله تعالى: (وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) [عبس:٣٦]، صحبةٌ تعني القرب والملاصقة والمعاشرة، صحبةٌ لها التأثير البالغ على سعادة كل منهما في دنياه، صحبةٌ إذا صلحت طابت الحياة لهما، وإذا فسدت تكدرت الحياة عليهما. قال صلى الله عليه وسلم: (..من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة...ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء) [صحيح[١]]، **ويُستدل أيضا بالحديث أن من سعادة المرأة الرجل الصالح، ومن شقوتها الرجل السوء.**

[١] الراوي: سعد بن أبي وقاص، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ١٩١٤، خلاصة حكم المحدث: صحيح لغيره.

العشرة الزوجية مبنية على المودة والرحمة بين الزوجين، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم:٢١]، والمودة هي المحبة، فزواج فيه حبٌ ورحمةٌ، زواجٌ اكتملت سعادته، وبقدر ما ينقص من الحب والرحمة بينهما تنقص السعادة في زواجهما.

والناس يختلفون في تأثير هذا النقص على سعادتهم الزوجية، فمنهم من ينشد الكمال في حبه ورحمته لتحقيق سعادته، وأيُّ نقصٍ يكدر زواجه وينقص فرحه بصاحبه، ومنهم من يتحمل الكثير من النقص، ويتفهمه ويقبله، ولا يعيق سعادته وأنسه بصاحبه.

وهذه المودة والرحمة هي التي تجعل كلٌ يسكن لصاحبه ويأنس به، قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) [الأعراف:١٨٩]، قال ابن كثير في تفسيره: "فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أنَّ الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه". والحب والرحمة هي أثرٌ ونتيجةٌ للرضا الديني، والميل الروحي، والقبول الشكلي، والانسجام الفكري، والتوافق الأخلاقي بين الزوج وزوجه.

والناس أيضا يختلفون في قوةِ تأثير كلِّ ميلٍ من هذه الميول لتحقيق مودته ورحمته، ومِن ثمَّ سكنه بصاحبه. فمنهم من يكفيه ميله

الديني، ومنهم من يكفيه الروحي أو الفكري أو الشكلي، ومنهم من لا يكفيه إلا كمال ميله لصاحبه في كل جانب.

والمودة والرحمة هما أساسا العلاقة الزوجية، قال الله تعالى (وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) [الروم:٢١]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "المودة حب الرجل امرأته"، وهي أيضا حب المرأة لزوجها، فالله تعالى يقول (بَيْنَكُم) يعني أن المودة والرحمة متبادلة من كل طرف للآخر. وهما مختلفان فالحب غير الرحمة، فكم مِن محبٍ لم يرحم حبيبه، بل كان حبه هو سبب تضييقه وقسوته لصاحبه. وكم مِن رحيمٍ لصاحبه بلا حبٍ وود، ولكنْ رحمةٌ سببها الإلف والمعاشرة، وسببها الطبع والدين، وسببها الولد والأهل.

والزواج التام السعادة من اكتمل فيه الحب والرحمة بين الزوجين، وهو عزيزٌ نادر، لكن الكثير يحقق سعادته في زواجه ببعض الحب والرحمة، أو بالرحمة والشفقة على الشريك والصاحب. بل من الأزواج من يصبر على الأذية والنكد تضحية بسعادته لأجل سعادة صاحبه وولده، الرجل يفعل ذلك، والمرأة تفعله. قال ابن كثير رحمه الله: "وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما وغير ذلك".

الطلاق وهو حلٌ للتعاسة والنكد، والخلاف والشقاق بين الزوجين، هو فراقٌ أليم، وفيه ضررٌ على الطرفين، ضررٌ نفسي وبدني، ومالي واجتماعي، بل ويتعدى ضررُهُ إلى الأولاد، وربما وصل لأهلِه وأهلِها. لذا كانت الوصية بالغفلة عن الصفات السيئة للصاحب ورؤية الصفات الطيبة، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر) [صحيح[1]]، والوصية بالصبر وكظم الغيظ، والصفح وبذل المعروف والإحسان، قال تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران:١٣٤]، والأقربون هم الأولى بكظم الغيظ عن زلتهم، والعفو عن خطأهم، والوصية ببذل كل الأسباب واستنفاذ كل المحاولات لإصلاح الزواج وبقائه ودوامه. قال الله تعالى: (فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) [النساء:١٢٨].

فالطلاق كان ندماً وحسرةً لزوج وزوجة، كان الطلاق بلا روية ولا تعقل، قال الفرزدق متندماً بعد تعجله بطلاق زوجه التي يحب نوار:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسَعِيّ لَمّا غَدَتْ مِنّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ
وَكَانَتْ جَنّتي فَخَرَجْتُ منها كَآدَمَ حِينَ لَجّ بِهِ الضِّرَارُ
وَكُنْتُ كَفاقِىءِ عَيْنَيْهِ عَمْداً فَأَصْبَحَ مَا يُضِيءُ لَهُ النّهَارُ

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ١٤٦٩.

وَلا يُوفي بحبِّ نَوَارَ عِنْدِي وَ لا كَلَفي بهَا إلاّ انْتِحَارُ

وذُكر أنَّ الأخطل كانت عنده امرأة، وكان بها معجباً، فطلقها وتزوج بمطلقة رجل من بني تغلب، وكانت بالتغلبي معجبةً، فبينا هي ذات يوم جالسة مع الأخطل، إذ ذكرت زوجها الأول، فتنفست الصعداء، ثم ذرفت دموعها، فعرف الأخطل ما بها. فذكر امرأته الأولى، وأنشأ يقول:

كلانا على وجدٍ يبيت كأنما بجنبيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضي تنوح وزوجها على الطلة الأولى كذاك ينوح

لكن متى ما صار الزواج جحيماً لا يطاق، وكلُّهُ خلافٌ وشقاق، وتعاسةٌ وبؤس، وضررٌ على الزوجين والأولاد، صار الطلاق حلاً أليماً، كالكي للعلاج. فالزواج جزء من الحياة، وليس هو كل الحياة، وفضل الله للزوجين أوسع، قال الله تعالى: (وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا) [النساء:١٣٠].

فالطلاق كان فرجاً وراحةً لزوج وزوجة، لا مودة بينهم ولا رحمة، قال أبو النضير عمر بعد فراقه لزوجته:

رحلت أنيسةُ بالطلاق وعُتِقتُ من رقِّ الوثاقِ
بانت فلم يألم لها قلبي ولم تَبْكِ المآقي
ودواء ما لا تشتهيه ال نفس تعجيلُ الفراق

لو لم أرح بفراقها لأرحت نفسي بالإباق

وقالت امرأةٌ بعد خلاصها من زوجٍ وصفته فقالت:

الزوج زوجان ذو مال يعاش به وذو شباب شديد المتن كالمرس
فلا شباباً و لا مالاً ظفرت به لكن ما شئت من لؤمٍ و من دنس

وعزاء كل رجلٍ وكلُّ امرأة، فات العمرُ ولم يتزوجا، أو تزوجا ثم افترقا، أو تزوجا ولم يكن ودٌ ولا رحمة، ولا حب ولا سكن، ولكن خلاف وشقاق، عزاءهما الجنة، ففيها عزاءٌ عن كل مصيبة وهم، وفيها كمال الأنس والفرح بالصاحب الموافق، الموافق في كل شيء تحبه وتشتهيه فيه. وعزاءهما أن في الدنيا فُرَصٌ للتسلية عن فقد الصاحب، أو الصاحب الموافق، عزاءٌ في العلم والعمل، وفي الأهل والصديق، وفي تذوق كل جمال أبدعه الله تعالى في هذه الدنيا، جمال يُسمع، وجمال يُشاهد، وجمال يُحس، وجمال في الطبيعة والكون، وجمال في الناس والخُلُق. وعزاءٌ لهما النظر لحال كثير من الناس، في قتال وحرب، وفي فقر وجوع، وفي خوف ومرض. قال صلى الله عليه وسلم: (انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) [صحيح[1]].

[1] الراوي: أبو هريرة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترمذي، الصفحة أو الرقم: ٢٥١٣، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الفهرس		
١.	مقدمة	٢
٢.	سبل السعادة	٦
٣.	الدين والسعادة	١٨
٤.	الطبع والسعادة	٢٨
٥.	العقل والسعادة	٣٤
٦.	الموت والسعادة	٤١
٧.	المؤمن والحزن	٤٨
٨.	من السعيد حقا	٥٢
٩.	الدنيا والسعادة	٥٦
١٠.	الناس والسعادة	٦٢
١١.	العمل الصالح لسعادة الدنيا	٧٦
١٢.	العمل والسعادة	٨٠
١٣.	الذكر والسعادة	٨٦
١٤.	القدر والسعادة	٩٢
١٥.	إدارة السعادة	١٠٠
١٦.	الزواج والسعادة	١٠٧